في فضل اللغة العربية

(تعلماً وتحدثاً والتزاماً)

معالجة قرآنية ونبوية وتراثية

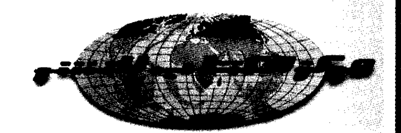
إعـــداد

دكتور / أحمد عبده عوض

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى
٢٠٠٠



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨


بسم الله الرحمن الرحيم





الحمد لله رب العالمين، أنزل قرآنه العظيم بلسان عربى مبين، على أفضل الخلق وسيد الرسل، وأفصح العرب، ومَنْ آتاه الله جوامع الكلم؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وذوى نسبه. وبعد:

فالعربية هى وعاء الكتاب الخالد بها أُنزل وحُفظ، وكل معلم ومتعلم فى حاجة إليها؛ لأنها أساس كل علم ومناطه؛ فالعربية خير اللغات، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين، كما أنها أمتن اللغات، وأوضحها بياناً، وأذلقها لساناً، وأمدها رواقاً، وأعذبها مذاقاً، ومن ثم فقد **اختارها الله تعالى لأشرف رسالة، ولخاتم أنبيائه، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته**، وأنزل بها كتابه المبين، وهى لغة الإيجاز والبيان والإعراب والبلاغة والفصاحة.

كما أنها تمثل المضمون الروحى لشخصيتنا العربية،وهى مناط قوميتنا، وأساس تراثنا، ومادہ ثقافتنا وحضارتنا، وهى مستودع رسالة السماء الخالدة؛ ولذا فلا تنفصل عن الدين؛ فقد سارت فى ركاب الإسلام؛ وحلت حينما حل؛ **فكانت أداة التواصل الروحى والدينى والفكرى بين الأمم والإسلام**.

ولكونها لغة القرآن؛ فقد اكتسبت جلالاً، وبهاءً، وحباً، ونفوذاً، ونفاذاً،كما حفظها القرآن الكريم فى صورة أقوى أداء للغة من خلال الفصحى العليا التى نزل بها القرآن؛ فحفظ للأمة سليقتها اللغوية،وأرهف ذوقها ببيانه المعجز.

وفضلُ اللغة العربية وروعتُها وعظمتُها وتميزُها يتأكد من كونها لغة القرآن، ولما تفردت به من سمات فريدة كلغة إنسانية؛ ولذا فكل متعلم فى حاجة إلى معرفة اللغة العربية وتفهمها؛ لأن الجهل بها، وسوء فهمها، واللحن فيها يوقع المرء فى أخطاء حياتية كثيرة.

ولأن اللغة العربية هى لسان ديننا، ولغة قرآننا؛ فقد عَرَضَتْ لها تحديات كثيرة استهدفت القرآن أولا واللغة بالتبعية وتاريخنا وتراثنا كذلك.. وهذه التحديات **كانت قديمة** على يد الاستعمار وتابعيه وأصحاب الدعاوى الباطلة، **كما أنها حديثة** على يد ما نراه فى البلاد العربية هذه الأيام من خطر متمثل فى مزاحمة الكلمات والألفاظ والمصطلحات الأجنبية للكلمات العربية، ومحاولة إحلال ألفاظ لاتينية، وإشاعتها؛ سواء فى الإعلانات أو اللافتات أوغيرها بدعوى التحضر والحداثة؛ حتى تموت الألفاظ العربية نتيجة إهمال استخدامها، ثم تتعلم الأجيال القادمة هذه الكلمات الدخيلة على أنها كلمات عربية؛ وذلك لكثرتها وشيوعها..

وهذا يجسد بعض ما تعانيه لغتنا العربية فى بلاد لغتها القومية هى العربية.

لذا يأتى أهمية التأكيد **على فضل اللغة العربية وأفضليتها وبيان أهمية تعلمها، والتأكيد على الجانب الدينى فى ذلك، وأبراز ضرورة التحدث بها.**

فتعلم العربية؛ يثبت القلوب، ويزيد فى المروءة، والمثابرة على تعلمها ومحبتها من الدين، وتحصيلها سبيل لتحقيق المصالح الدينية والدنيوية.. وهذا ما أكده أئمة اللغة.

وللتحدث بها فضل عظيم؛ فهى أسرع تأثيرا، وأفضل إبانة وأكثر جذبا وقبولا لدى المستمع، والمرء مثاب على ذلك دينيا؛ لأن الخطأ فى اللغة قد يؤدى إلى الضلال، عندما يختلف المعنى أو يأتى بخلاف المراد، ،لذا كان العلماء يستغفرون الله تعالى عندما يُخطئون فى اللغة..

ولذا فقد اقدر العربُ قيمةَ اللغة العربية؛ فحرصوا عليها وأولوها مزيد عنايتهم، وسعوا إلى التعمق فيها ودراسة أسرارها؛ إذ هى السبيل لفهم الدين، والمدخل لتفسير القرآن الكريم والحديث الشريف **ولذا وضع العلماءُ اللغة العربيةَ والإفتاءَ فيها بمنزلة العلوم الشرعية.. كما قبحوا اللحن والوقوع فى الخطأ، واعتبروا ضياع اللسان أخطر من ضياع المال.**

هذا ما فعله السلف، أما ما نفعله نحن من إهمال للغة وإضعاف لها، ومزاحمة العامية والكلمات اللاتينية لها، وصور التردى اللغوى، وضياع السليقة اللغوية، وفساد الذوق اللغوى؛ فهذا أضحى شائعا ولايحتاج إلى تأكيد، وإنما يحتاج إلى دراسات تأملية لسُبل العلاج، والعودة إلى الالتزام بالفصحى.

وهذه الدعوة نؤكد عليها هنا، وذلك لإحساسنا بأهمية اللغة ودورها الحضارى وضرورة إحيائها على ألسنتنا، والرد على هؤلاء الزاعمين بصعوبتها، وتعقيدها، وإعاقتها للإبداع العلمى مما كان له مردوده السيئ على استخدام اللغة.

ولعل من أخطر ما يلاحظ هذه الأيام أن هُجرت اللغة الفصحى، وتفشت العامية، وصار التخاطب بها هو المألوف على ألسنة المتخصصين والمثقفين وغيرهما.. ولعلك لاترى من يتحدث العربية الفصحى إلا قليلا جدا فى الأوساط العلمية والإعلامية.

ولذا فغاية ما نؤكد عليه هو **الحرص على التحدث بالعربية ما استطعنا** إلى ذلك؛ حتى يصير ذلك هو ديدننا وأسلوب تخاطبا فيصبح أمرا مألوفا ممارسا ومن السهل أن تألفه الآذان وتعتاد عليه الألسنة، ولايكون أمرا شاذا.

وكاتب هذه السطور يعانى من التزامه بالفصحى فى كلامه العلمى والخطابى والاجتماعى؛ وربما كان ذلك مثار دهشة من كثيرين من المثقفين والعامة، وهذا السلوك يُرى أنه غير مألوف، وشاذ فى وقت تغلبت العامية، على أننى رغم استخدامى للغة سهلة قريبة من مستوى المخاطبين إلا أن تعجب الناس من ذلك له عذرٌ لدىّ، فهم لم تألف آذانهم اللغة الصحيحة، ولم تجر ألسنتهم بها إلا قليلا.

ونجدنا فى حاجة إلى ارتياد حدائق لغة القرآن؛ مستلهمين من تراثنا الإسلامى والعربى ما يقوى صلتنا باللغة، وذلك من خلال رصدنا لكل ما

أتيح لنا بشأن فضل اللغة العربية فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف وأقوال الأئمة ومواقفهم؛ التى تؤكد فضل العربية، وضرورة الحرص عليها.

فنحن إذن فى رحلة للبحث عن بعض **الدر الكامن فى أعماق لغة القرآن، من خلال غواص مجتهد**؛ محب للغة، متمرس بها، متخصص فيها؛ راجيا التوفيق والهداية والسداد..

ورحلتنا هذه عمدنا فيها إلى البعد عن الدراسات الأكاديمية المتصلة بعلم اللغة، والمتجهة إلى المختصين؛ بعيدا عن الخلاف بين علماء اللغة فى القضايا اللغوية المختلفة.. **وكان حرصنا ولازال على تقديم مادة لغوية مبسطة تناسب القارئ العادى غير المتخصص**، وتكون عونا له على التعرف على لغة القرآن الكريم وفضلها وحاجته إليها وأهمية الالتزام بها والحرص عليها.. وهذا بعض ما تستهدفه رحلتنا وسياحتنا فى بحر اللغة العربية.

وتُستهل رحلتنا بتناول **مدخل فى فضل اللغة العربية وبيانها وحاجتنا إليها**، وذلك من خلال أربعة محاور، نعرض فى أولها للغة العربية بين التاريخ والحاضر والمعاصرة والعالمية، ثم نتوقف فى ثانيها عند العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية، ونعرج فى ثالثها لتبيان بعض خصائص اللغة العربية، ثم ننتهى فى رابعها عند تساؤل عن حال اللغة العربية هذه الأيام.. **وهذا ما يُفصله المبحث الأول..**

ثم نطوف فى أرجاء القرآن العظيم؛ لنرصد الآيات الإحدى عشرة التى ورد فيها لفظ (العربية)ودلالتها ومناسبتها، وذلك من خلال أربعة محاور، نتناول فى أولها وصف القرآن الكريم بكونه (عربيا)، وفى ثانيها نتوقف عند وصف القرآن الكريم باللسان العربى، وفى ثالثها نوضح أفضلية كون القرآن عربيا وليس أعجميا،وفى رابعها نبين وصف القرآن بالحكم العربى، ثم نعقب على ذلك بوقفة تحليلية مع الآبيات التى فُصل القول فيها، وذلك من خلال سبع نقاط فرعية تحليلية، **وهذا ما يفصله المبحث الثانى.**

كما نسبح مرة أخرى فى اللغة العربية فى الحديث النبوى الشريف ونماذج للغته ﷺ وذلك من خلال رصدنا بعض أقواله ﷺ أولا: فى أول مَنْ تكلم اللغة العربية، وثانيا: فى كون العربية لغة أهل الجنة، وثالثا: فى إيحاء اللغة إليه ﷺ، ورابعا: نقدم سمات لغته العربية ﷺ، ونماذج من قوة لغته وبيانه، **وهذا ما يعرض له المبحث الثالث.**

ونعرج فى رحلتنا إلى **تراثنا العظيم من خلال بيان فضل اللغة العربية** لدى الأئمة والعلماء، وذلك من خلال رصدنا لبعض أقوالهم والتعقيب عليها، وذلك من خلال تقديم نماذج مختارة من الأئمة، بداية بعمر بن الخطاب وفضل تعلم اللغة العربية، ثم الإمام الشافعى وأوجه تفضيلها، والجاحظ ومناط فضلها وسر تفوقها، ثم نذكر ما قاله ابن جنى عن اللغة العربية وأهلها، والثعالبى ورأيه فى خيرية اللغة العربية، ثم نسوق ما قاله القلقشندى فى تفضيل اللغة العربية وسرد بعض خصائصها، ثم نعرج لما قاله أصحاب المعاجم اللغوية فى فضل اللغة العربية، ثم مقتبسات مما قاله بعض الأئمة. **وهذا ما يتناوله المبحث الرابع.**

وتنتهى رحلتنا بين الالتزام والطرافة بتقديم **مواقف لغوية مختارة** من التراث فى الحرص على اللغة، والالتزام بها، والحفاظ عليها، وذلك من خلال ثلاثة محاور، نعرض فى أولها لكيفية حرص علماء العربية على لغتهم، وفى ثانيها للتحرز اللغوى لدى علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم، وفى ثالثها نتحدث عن عناية العلماء بالنحو وبالتحدث بالفصحى وعدم الوقوع فى اللحن، **وهذا ما يعرض له المبحث الخامس.** .

ولعل المعالجة تكون إضافة لمكتبتنا الإسلامية واللغوية، وتكون تحقيقا للدغوة إلى الالتزام بالعربية وبيان فضلها، وتأكيداً على أهمية التحدث بها، وتعلمها، وعدم التفريط فيها.

الله أسأل أن يكون التوفيق قد لازمنا وصاحبنا، وأن يجعلنا من حفظة لغة كتابة، وأن يجعل هذا العمل فى ميزان حسناتنا يوم القيامة، وأن ينفع به إن شاء الله..

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]

والله من وراء القصد ومنه المنة والعون.

المؤلف

أحمد عبده عوض


المبحث الأول
مدخل فى فضل
اللغة العربية
وبيانها وحاجتنا إليها

المبحث الأول: مدخل في فضل اللغة العربية، وبيانها، وحاجتنا إليها

نسعى من خلال هذا المبحث على التأكيد على بعض أوجه فضل اللغة العربية، وبيان بعض خصائصها، وإبراز العلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية، وفضل القرآن الكريم عليها، وهذا ما نتناوله من خلال أربعة محاور:

نعرض فى أولها للغة العربية بين التاريخ والحاضر والمعاصرة والعالمية مع إبراز بعض سمات العالمية فيها.

ثم نعرض فى ثانيها للعلاقة بين القرآن الكريم واللغة العربية وأوجه تأثرها بالقرآن، وبيان فضله عليها وعلى العرب.

ونعرج فى ثالثها بتبيان خصائص اللغة العربية كإطار عام نعرض من خلاله لخاصيتى الاتساع (السعة والخصوبة) و البيان (الإفصاح).. مستشهدين ببعض أقوال العلماء فى الغرب؛ للتأكيد على تفوق العربية وفضلها.

ثم ننتهى فى رابعها عند تسأول عن حال اللغة العربية اليوم، وما تتعرض له من تحديات عظام من داخل الأمة ومن خارجها.

كل هذا نعرض له تفصيليا فيما يلى:

أولا: اللغة العربية بين التاريخ والمعاصرة والعالمية:

أ- اللغة العربية لسان الحاضر:

اللغة العربية لسان عبادة، ومعجزة نبى كريم ﷺ، وهذا المضمون الروحى للغة العربية هو المعبر الروحى الذى انتقلت به حضارة العرب إلى أصقاع العالم فى آسيا وأفريقيا وأوربا.

وهى كذلك **قوام الشخصية العربية،** ومناط قوميتنا، وأساس تراثنا، ومادة ثقافتنا وحضارتنا، وأداة التواصل بين أبناء الأمة وبين إخوانهم فى العقيدة.

وقد عصمها الله على مر الزمن، وتعاقب الأحداث من التمزق والضياع، وظلت جامعة لأبنائها؛ يتخاطبون بها عبر الأجيال، ولا يشك المرء لحظة فى

أن هذا الثبوت والرسوخ والخلود إنما يرجع إلى كتاب الله تعالى؛ والذى أراد الله القدير أن تستودع اللغةُ العربية رسالتَه السماوية الخالدة.

ولذا فالذين يُؤرخون للغة العربية يؤكدون على أفضليتها **من الناحية الدينية،** والتى أكسبتها كمالا وجلالا وفضلا وقدسية، ولايعجب المرء عندما يقرأ فى كتب اللغويين القدماء ما يشير إلى أنها **لغة الملائكة، ولغة أهل الجنة،** وكان هذا مظهرا من مظاهر تقديسهم لها، وإيمانهم بكمالها، وباختيار الله لها لتكون **لغة خير الرسل وأفضل الكتب.**

وقد جعل الله لها قبولا وقوة؛ فقد أصبحت اللغة الرسمية للبلاد المفتوحة؛ التى هجرت لغتها القومية دون أن يجبرها أحد على ذلك كما لم يكرهها أحد على الدخول فى الإسلام.

فالقرآن الكريم يفتح القلوب بالعربية، وهذا أكسبها جلالا وبهاء وحبا ونفوذا ونفاذا.

ولذا فقد حفظ القرآن اللغة العربية فى صورة أفضل وأقوى أداء للغة من خلال الفصحى العليا التى نزل بها القرآن، فحفظ للأمة سليقتها اللغوية، وأرهف ذوقها ببيانه المعجز.

ويأخذ المرء شعور بالعزة والفخر فى كون اللغة التى ينطقها هى نفسها **لغة الوحى،** وهى نفسها لغة الرسول الكريم ﷺ، وهى أداة تواصل روحى ووجدانى وفكرى؛ يبلغ بها تفاعل المرء مع دينه العظيم أرقى درجاته من خلال هذه اللغة، وتمكنه منها.

ولسنا نجد فصلا بين اللغة العربية والإسلام، فاللغة العربية سارت فى ركاب الإسلام، وحلت حينما حل. **فالعربية من الدين** لا تنفصل عنه، ولا ينفصل عنها، وهما متفاعلان على نحو ما سنؤكد فى مواضع متفرقة تالية.

ب - العربية والمعاصرة:

اللغة العربية لغة حية، فقد غزت أماكن كثيرة فى شتى بقاع العالم،

ودخلت أمماً مختلفة وأثرت فى لغاتها، واستقبلت معظم لغات العالم مفردات كثيرة من اللغة العربية؛ مما يدل على كونها لغة حية.. ولكونها عُرفت بسعتها وثرائها وبما تملكه من وسائل النمو والتطور من اشتقاق ومجاز ونحت وتعريب.. الخ، **فقد استطاعت أن تستوعب الثقافات والعلوم المترجمة فى عصور الإسلام الأولى.**

ونؤكد أن استعمال اللغة العربية لايقف حائلاً أمام الإبداع والإيضاح كما أدعى بعضهم، فالإرث الحضارى الرائع لدى علماء المسلمين فى شتى المجالات الأدبية والدينية والعلمية شاهد على ما تقدم، حيث ترى لغةً أدبيةً فائقة الرقى، وتستطيع أن تلمس ذلك فى الموسوعات العلمية والأدبية التى أبدعوا من خلالها بفكرهم ولغتهم وقوة تعبيرهم.

وفى أيامنا هذه لايختلف الأمر كثيراً فاللغة عندما لاتساعد صاحبها فى التعبير عن أفكاره، فهذا ليس عيباً فى اللغة، وإنما فى ضحالة الثروة اللغوية وفقرها لديه، وعندما يعجز عن الإبانة عما يلج فى فكره؛ فعندئذ تُتهم اللغة بأنها معوقة الإبداع(*).

إن الذى لا يستطيع أن يصعد الجبل لعدم قدرته على ذلك، لاينبغى أن يطلب إلى الجبل أن يدنو منه وينخفض إلى الأرض؛ كى يتأتى له ارتياده والصعود إليه، وبعد ذلك يكون الخطأ لدى الجبل الذى علا وارتفع وكان ينبغى ألا يظل شاهقاً؛ ليناسب هؤلاء ضعاف الهمة والعزيمة!!.

ولست أجد كثير اختلاف بين اللغة والجبل، ولابين هؤلاء المتهمين للغتنا بالعجز عن مسايرة العلم الحديث والمصطلحات العلمية، وبين هؤلاء الذين أنكروا على الجبل علوه وارتفاع قامته.

(*) لعله من الموضوعية والإنصاف أن نشيد بما قاله الروائى الكبير الأستاذ نجيب محفوظ فى كلمته التى ألقيت فى حفل تسليم جائزة نوبل للآداب فى استوكهولم يوم ٩/ ١٢/ ١٩٨٨ والتى ألقاها عنه الأستاذ محمد سلماوى -حيث قال- **«وأرجو أن تتقبلوا بسعة صدر حديثى إليكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هى الفائز الحقيقى بالجائزة فمن الواجب أن تسبح أنغامها فى واحتكم الحضارية لأول مرة».**

جـ - العربية والعالمية:

اللغة جوهر القومية، والمتأمل فى تاريخ اللغة العربية قبل الإسلام يجد أنها كانت مزدهرة مكتملة النمو فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية، وكانت مصدر تنافسهم، وإجادتهم، وكانت لهم أسواقهم ومساجلاتهم ومناظراتهم.. وبالطبع فهى أداة أدائهم وتعبيرهم، ومصدر اعتزازهم؛ **غير أن نزول القرآن الكريم بها زادها ازدهاراً فوق ازدهار، وثبت أركانها وقوى دعائمها**.. ثم كانت الفتوحات الإسلامية فى الأمصار وما وراء الأمصار فإذا باللغة العربية والتى ارتبطت بالدين ارتباطاً وثيقاً وحملت معجزته الكبرى تجد إقبالاً من المناطق التى دخلت فى الإسلام، بنفس درجة إقبالهم على الدين «وهكذا أصبحت اللغة العربية خلال قرنين من الزمان لغة عالمية تنتظم جهات من بلاد فارس، وكل العراق، ومعظم مدن آسيا الصغرى، كما تنتظم مصر وشمال إفريقيا وبلاد الأندلس»[1].

وكان من البداهة أن تصطدم اللغة العربية بعد الفتح الإسلامى بلغات الدول المفتوحة، **ولكنك تجد أن اللغات المحلية قد تقهقرت ولم تصمد أمام الهداية التى تحملها اللغة العربية، وأمام نور الله الذى لاسبيل إلى استشراقه إلا بلغة القرآن.** حدث هذا مع الإغريقية فى الشام والعراق، ومع اللغة الآرامية فيهما، ومع الرومانية فى مصر، ومع البربرية فى شمال إفريقيا، ومع الفارسية فى بلاد فارس.

ويمكنك بعد ذلك أن ترصد سمات عالمية اللغة العربية فى:

* سعة انتشارها، وصبغها لشعوب عدة بالصبغة العربية، فأخذت بالطابع العربى ديناً ولغة وثقافة وحضارة، وأصبحت من أوسع لغات العالم انتشاراً.

---

(١) إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠، ص٢٧٦ ومابعدها.

* وكذلك وهى فى أوج نهضتها رحبت بكثير من الألفاظ التى اقترضتها من اللغات الأخرى، واستغلتها فى المصطلحات العلمية ولغة الكلام.

* **وصمدت كذلك فى كل تاريخها** فلم يصبها ما أصاب اللاتينية من تفتت إلى لغات مستقلة. ورغم ما أصاب الدول العربية من مآسى واضمحلال سياسى خلال عدة قرون؛ إلا أنها اللغة التى ظلت صامدة؛ تقويها الروح الإسلامية وتشد أزرها.

* **لصعوبة الفصل بين الإسلام واللغة العربية** فإن الفصل بين العروبة والإسلام تفتيت لوحدة الأمة، وجهل بحقائق الدين واللغة.. فأى دعوة للقومية والوحدة ينبغى أن تنطلق من اللغة العربية التى حملت تراثنا، وتمثل الأساس القويم للوحدة اللغوية والدينية والثقافية والروحية؛ فالقومية لاتستلهم وجودها إلا عن طريق هذه اللغة، ولايتحقق دعمها إلا على أساس ذلك اللسان العربى المبين.

* ونؤكد أن **عالمية اللغة العربية هو إقرار بعالمية الإسلام** وعموم رسالته ﷺ ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [**الأعراف**: ١٥٨] .

* * *

ثانياً: بين القرآن الكريم واللغة العربية:

احتفظت اللغة العربية بكيانها، وذلك لكونها لغة القرآن الكريم؛ الذى قدر الله له الخلود ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩]. ثم هى لغة الرسول الكريم ﷺ؛ الذى نشر هذا الدين العظيم فى قوم لغتهم العربية ثم قام المسلمون بدراسة القرآن الكريم، وأحاديث الرسول المصطفى واستنباط الأحكام الشرعية، **وكانت اللغة هى عونهم على ذلك، وسبيلهم للفهم والتفقه.**

يقول بروكلمان «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أى لغة من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية هى وحدها اللسان الذى أُحل لهم أن يستعملوه فى صلواتهم وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانةً رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى».

وكان لنزول القرآن الكريم باللغة العربية أعظم الأثر فى توطيد هذه اللغة وتقوية سلطانها على الألسنة، وتهذيبها وتنقيحها واتساع الأغراض التعبيرية وفنون القول فيها، **ويبدو ذلك فى تنوع المعانى والأخيلة والأساليب والألفاظ.**

كما يبدو تأثر العرب بأسلوب القرآن جلياً، إذ انطبعت فى لغتهم العذوبة والفصاحة والجزالة، **فإنه خالط قلوباً قاسية، فألانها**، وطباعاً قاسية؛ فهذبها، وأضفى على اللغة العربية عذوبة لفظ، ورقة أسلوب، وسماحة تركيب، وقوة حجة، ورزانة منطق، ودقة أداء وغزارة معنى[١] .

وكان من فضل القرآن على اللغة تهذيبها من الحوشية، والسير بها إلى السهولة والمتانة، ووضوح القصد وبلوغ الغرض من أوضح الطرق، وأجود الأساليب، فإن المسلمين طالما رطبوا شفاههم بآياته فى صلاتهم وعباداتهم،

(١) محمد كامل الفقى: فضل القرآن على اللغة العربية، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى، سبتمبر ١٩٧٦، ص٢٣ .

واستجلوا مظاهر الأدب الرفيع المعجز فى عباراته وأمثاله، واستعاراته ومجازاته وكناياته، وتشبيهه وتمثيله. **وكل ذلك حقق لهم إرهافاً فى الذوق، ونضجاً فى الموهبة، وسموا فى الحاسة الفنية، كما خلق فيهم الميل الشديد إلى محاكاة أساليبه واقتباس ألفاظه.**

وقد جاء القرآن مخالفاً لكلام العرب فى الطريقة والمذهب، وفى المنزلة والصنعة، وإنْ جانس لغتهم فى المادة والتركيب، ولولا ذلك لذهب فى كلامهم. وكان سبيله سبيل القصائد والخطب والأقاصيص وغيرها. أو لتدافعته العصور والدول إن لم يذهب، وكان مثله حينئذ مثل ما يبقى من أمور الإنسان.

ولكن أبى الله لآيته وإعجازه أن يكون كذلك، فأنزل القرآن حاوياً لأهم أسباب الارتقاء من الغلبة والانفراد والتميز. فكان سبباً فى جميع ما أحدث، وكان نزوله بهذه الطريقة المعجزة سبباً فى حفظ العربية واستخراج علومها.

وكان أصل ذلك هو **التحدى بها**، الذى كان من حكمته أن ينظروا فى أساليب القرآن ووجه نظمه ليتدبروا طريقته، ويجربوا عليها أنفسهم ويحملوها على الإتيان بما تحداهم إليه إن استطاعوا، حتى إذا استيقنوا العجز من أنفسهم، وأجمعوا عليه مع توفر الدواعى وقيام الحاجة إليه، ووجود المادة التى منها ائتلف، كان ذلك سبباً لمن يخلفهم على اللغة إلى استبانة وجوه الإعجاز؛ فكشف لهم ذلك عن فنون البلاغة وتأدت بهم إلى حيث بلغوا من تتبع كلام العرب والكشف عن محاسنه[1] .

وسيأتى الحديث عن تحدى القرآن لهم بلغته فى المباحث التالية:

ويمثل القرآن الكريم بحق انفجاراً هائلاً، «رج أنحاء الحياة العربية على اختلاف مستوياتها، ولاسيما الجانب اللغوى والبيانى، فقد واجه العرب فى

(١) محمد كامل البوهى: المرجع السابق، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

لغتهم شيئاً لم يعهدوه من قبل فى لغة شعرائهم وخطبائهم كان جديداً فى كل شئ قام به بيانه، فالألفاظ المعروفة بأصواتها تختلف عما عرفوه بمعانيها فى القرآن، واختلاف معانى الألفاظ يقتضى من القارىء أن يتعرف عليها حتى يفهم المراد من الجُمل والعبارات، وحتى يستوعب المفهوم الكامل للنص المقروء»[1] .

وهكذا أضاف القرآن الكريم معانٍ جديدة، وأساليب لغوية لم يعهدوها، وتراكيب غير مألوفة على سمعهم؛ إلى غير ذلك مما أكسبها ثراءً ودقةً وجمالاً.

ولايخفى على القارئ الكريم أن الإنسانية لم تعرف طول تاريخها لغة خلدها كتاب إلا اللغة العربية، وتلك إحدى مصادر إعجاز القرآن، **«فقد أعطى اللغة إكسير الحياة وسر البقاء، واستمدت من كلماته روح الثبات، وشجاعة المواجهة،** فكان القرآن الروح التى جعلت العربية الفصحى لغة كل العصور، وكل ما جاءنا من تراث هذه اللغة إنما مرده إلى القرآن؛ الذى فجر علومها، وأطلق عبقرية أبنائها؛ فبقيت العربية كما كانت، راسخة القدم مبنى ومعنى قادرة على مواكبة الحضارة؛ تأخذ من غيرها مايلزمها، وتعطى لغيرها مايلزمه . . »[2] .

ونظرا للعلاقة الطبيعية بين القرآن الكريم واللغة العربية، فقد ساعد القرآن الكريم على ازدهار العلوم اللغوية، وأسهم فى ثراء الفكر اللغوى الأدبى والبلاغى والخيالى عند العرب.

ولذا فقد نشأت علوم اللغة لخدمة القرآن الكريم، للمحافظة على نصه، وللمساعدة فى فهمه حق الفهم، وهذه العلوم اللغوية العربية من قبل ومن بعد صنيعة القرآن، وتدين له بوجودها ثم اتساعها وخلودها.

(١) عبد الصبور شاهين: العربية لغة العلوم والتقنية، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨٢، ص٥٩.
(٢) عبد الصبور شاهين: المرجع السابق، ص٤٤.

ويؤكد ذلك التطور التاريخى، فقد نزل القرآن الكريم مشرعاً للدين والحياة (بلسان عربى مبين) فكان الحفاظ على نصه من الضياع أو التحريف وكان فهمه فهما يُمكن من استنباط أحكام العقيدة والتشريع منه؛ واجبيّن تفرضهما ضرورة الالتزام بما فى القرآن من عقيدة وشريعة فلم يكن عجباً أن يبادر أولو العزم والبصيرة من أفراد الأمة إلى العمل لتحقيق هاتين الغايتين العظيمتين، وقد تولدت العلوم العربية عن محاولة تحقيق هاتين الغايتين[1] .

ولذا وجب أن نشير إلى أن العلوم اللغوية الأساسية التى نشأت لخدمة القرآن الكريم لايمكن أن يجهلها من يتصدى لفهم النص الدينى، قرآناً كان أو غير قرآن، وإلا كان أشبه بمَنْ يُجرى عملية جراحية، وليس معه أدوات لذلك، ولم يدرس علم التشريح . .

والمتأمل فى العلوم اللغوية يجد عظمة هذه اللغة، وتفرد خصائصها، وهذا ما نزيده إيضاحاً فيما يلى.

(١) محمد حسن جبل: علم اللغة العام، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٨٢، ص١٠٨.

ثالثاً: خصائص اللغة العربية:

فى إطار حديثنا عن تميز العربية وأفضليتها؛ نتناول أبرز الخصائص للغة العربية والمتمثلة فى: البيان، والسعة، وكثرة حروف المبانى، والإعراب، وكثرة المفردات، والاشتقاق، والتوكيد، وتنوع الأساليب والعبارات، والقدرة التعبيرية على المعانى الثانوية، وأنها تكتب كما تقرأ، وقابلية المشتقات للتصريف، والإيجاز، والمجاز، وقربها من المنطق، وقدرتها على الأخذ والاستيعاب من غيرها..

وكل خصيصة مما تقدم لها تفصيلات عدة، وقد عُنيت مؤلفات تراثية وحديثة بهذا الأمر؛ بما لايدخل فى نطاق اهتمامنا هنا.

ونظراً لضيق المقام فإنا نتناول خصيصتين فقط من خصائص اللغة العربية، وهما: **السعة (الخصوبة)، والبيان (الإفصاح) للتأكيد على فضلها وأفضليتها من خلالهما**، وهذا ما نفصله فيما يلى.

والمتأمل فى العلوم اللغوية يجد عظمة هذه اللغة، وتفرد خصائصها وهذا ما نتناوله هنا من خلال خصيصتى السعة، والبيان.

أ- سعة اللغة العربية وخصوبتها:

تميزت اللغة العربية بأنها أوسع ثروة فى أصول الكلمات والمفردات من كل اللغات السامية؛ فهى تشتمل على جميع أصول هذه اللغات وتزيد عليها بأصول كثيرة؛ احتفظت بها مما لايوجد له نظير فى أى لغة أخرى، فقد جُمع للأسد خمسمائة اسم، وللثعبان مائتا اسم، وللعسل ثمانين اسم، وللسيف ألف اسم، وهكذا؛ وهذا يتسق مع طبيعة العرب فى السخاء الطبيعى والمادى، **والذى كان له مردوده على سخائهم اللغوى**، ولذا فقد وضعوا لبعض المعانى أسماء تفوق التصور والتخيل. وبذا اتسعت اللغة العربية اتساعاً عظيماً، ويبرز ذلك فى غزارة مفرداتها، وكثرة الاشتقاق فيها، ووجود النحت، والقلب والإبدال، وسعة صدرها فى التعريب والمجاز والكناية

والنقل، واتسعت لعلوم الحضارة، وعرفت بكفايتها النادرة، ومنزلتها السامية وقوة أدائها.

ولذا يقول السيوطى فى (المزهر) نقلاً عن العلماء فى باب **(سعة اللغة):**

قال بعض الفقهاء: **كلام العرب لايحيط به إلا نبى.**

قال ابن فارس: وهذا كلام حَرِىٌ أن يكون صحيحاً، وما بَلَغَنا أن أحداً ممن مضى ادَّعى حفظَ اللغة كلِّهَا، فأما الكتابُ المنسوبُ إلى الخليل وما فى خاتمته من قوله: **هذا آخرُ كلام العرب؛** فقد كان الخليلُ أروعَ وأتقى لله تعالى من أن يقول ذلك. وقد سمعت على بن محمد بن مهْرُوَيَة يقول: سمعت هارون بن هزارى يقول: سمعت سفيان بن عُيَيْنة يقول: **مَنْ أحبَّ أن ينظرَ إلى رجلٍ خُلِقَ من الذَّهب والمسك فليَنظرُ إلى الخليل بن أحمد.**

قال: وسمعتُ النَّضر بن شُمَيل يقول: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بالسُّنَّة بعد ابن عون من الخليل بن أحمد. قال: وسمعت النضر يقول: **أكِلَتْ الدنيا بأدَب الخليل وكُتُبِه وهو فى خُصٍّ لايُشْعَر به.**

قال ابن فارس: فهذا مكان الخليل من الدين؛ أفَتُرَاه يُقْدِم على أن يقول: **هذا آخرُ كلام العرب؟**.

ثم إن فى الكتاب المرسوم به من الإخلال ما لا خفاءَ به على علماء اللغة، ومَنْ نظر فى سائرِ الأصناف الصحيحة عَلِم صحَّة ما قُلْناه، و هذا الذى نَقَله عن بعض الفقهاء نصَّ عليه الإمامُ الشافعى رضى الله عنه، فقال فى أوائل الرسالة: **لسانُ العرب أوسعُ الألسنة مذهباً، وأكثرُها ألفاظاً؛** ولا نعلمُ أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبىّ، ولكنه لايذهبُ منه شئ على عامَّتها، حتى لايكونَ موجَوداً فيها مَنْ يعرفَه، والعلمُ به عند العرب كالعلم بالسُّنة عند أهلِ الفقه، لايعلمُ رجلٌ جميعَ السنن فلم يذهب منها عليه شئ، وإذا جُمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السُنن. وإذا فرّق علم كلٍّ واحد منهم ذهب عليه الشئ منها، ثم ما ذهب منها عليه موجودٌ عندَ غيره، وهم

فى العلم طبقاتٌ منهم الجامعُ لأكثْرَه وانْ ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لأقله مما جمع غيره، وليس قليلُ ماذهب من السُنن على مَنْ جمع أكثرَها دليلاً على أن يطلب علمه عند غير أهل طبقته من أهل العلم، بل يطلب عند نظرائه ماذهب عليه، حتى يُؤتى على جميع سنن رسول الله ﷺ بأبى هو وأمى، فتفرَّد جملة العلماء بجملتها وهم درجات فيما وعوا منها، وهذا لسانُ العرب عند خاصتها وعامتها لايذهبُ منه شئ عليها ولايطلب عند غيرها، ولا يعلمُه إلا من قبله منها، ولايَشْرَكها فيه إلا من اتَّبعها، وقبله منها، فهو من أهل لسانها، وعلم أكثر اللسان فى أكثر العرب أعلم من علم أكثر السنن فى العلماء **«هذا نص الشافعى بحروفه»** ونجد تصديقاً معاصراً لسعة اللغة العربية فى قول حافظ إبراهيم على لسان العربية:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية	وما ضقت عن أى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة	وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامنٌ	فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى	وفيكم - وإنْ عز الدواء - أُساقى؟

وإنك لتعجب أن ترى العلامة الفرنسى الكبير أرنست رينان يقف فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) موقف المنصف أمام عظمة العربية، وجلال روعتها، وخصب مادتها فيقول:

«إن هذه اللغة قد بلغت حد الكمال فى قلب الصحراء عند أمة من الرُحل؛ ففاقت اللغات بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، وكانت مجهولة من الأمم؛ لكنها من يوم عُلمت ظهرت للناس فى حلل الكمال، ولم يُعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا نعلم شبيهاً لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة كيانها؛ خالصة من كل شائبة».

كما نرى غيره من علماء الغرب يشيدون باللغة العربية وبسمتها وفضلها؛ على نحو ما نوضح فيما يلى:

ب - اللغة العربية فى مرآة علماء الغرب:

نورد هنا مقتبسات مما قاله بعض علماء الغرب المنصفين بشأن تميز اللغة العربية(*)، فيما يلى:

* **عبد الكريم جرمانوس:** ساعد القرآن الكريم على روعة العربية، وخلودها، فقد كان لأسلوبه أثر عميق فى دخول الناس فى الإسلام كما اتسمت العربية بالمرونة التى لاتُبارى.

* **لويس ماسينون:** أدخلت اللغة العربية فى الغرب طريقة التعبير العلمى، والعربية من أنقى اللغات، واتسمت بالإيجاز الذى لاشبيه له فى سائر اللغات، والذى يعد معجزة لغوية كما قال البيرونى.

* **يوهان فك الألمانى:** تمثل العربية الفصحى رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام، وقد برهن جبروت التراث العربى الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر.

* **جاك بيرك الفرنسى:** إن أقوى القوى التى قاومت الاستعمار الفرنسى فى المغرب هى اللغة العربية، بل اللغة العربية الفصحى بالذات فهى التى حالت دون ذوبان المغرب فى فرنسا وكانت عاملاً قوياً فى بقاء الشعوب العربية.

* **جورج سارطون:** إن الوحى نزل على الرسول الكريم باللغة العربية، وهكذا كانت العربية لغة الله ولغة الوحى ولغة أهل الجنة، وقد أكد الرسول الكريم على وجوب قراءة القرآن الكريم باللغة العربية، فكان من نتائج هذا:

(*) أفدنا فى هذا الجزء بكتاب الأستاذ أنور الجندى «الفصحى لغة القرآن» بيروت - دار الكتاب اللبنانى، ص٣٠١ - ٣٠٨.

ذلك الاتجاه العقلى الواحد فى التأكيد على الصحة المطلقة للغة العربية - ولقد اتُفق أن أصبحت اللغة الوحيدة التى عرفها رسول الله كانت من أجمل اللغات فى الوجود، إن خزائن المفردات فى اللغة العربية غنية جداً، ويمكن لتلك المفردات أن تزداد بلا نهاية.

ولغة القرآن تمثل اتفاقاً عجيباً؛ فالرسول الكريم مع أنه أمى كان يملك ناصية اللغة؛ إذ آتاه الله بياناً ووهب اللغة العربية مرونة جعلها قادرة على تدوين الوحى الإلهى أحسن تدوين بجميع دقائق معانيه ولفتاته. وهكذا جعل القرآن الكريم من اللغة العربية وسيلة دولية للتعبير عن أسمى مقتضيات الحياة.

* **جوستاف جرونيباوم**: ما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية فى شرفها؛ فهى الوسيلة التى اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هى وحدها التى تسمو بها على ما أودع الله فى سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح فى ضروب المجاز والاشتقاق.. الخ، وهى مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات فى إيصال المعانى.

* **كارل نلينو**: اللغة العربية تفوق سائر لغات العالم رونقاً وغنى، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها.

* **فان ديك**: العربية أكثر لغات الأرض امتيازاً، وهذا الامتياز من وجهين: الأول من حيث ثروة معجمها، والثانى من حيث استيعاب آدابها.

تعقيب:

رغم أن ما ذكرناه عن بعض علماء الغرب لايضيف جديداً إلى **فضل العربية** بيد أننا نؤكد أنها لها من المكانة والمنزلة بحيث لايُنكر ذلك على لسان العدو والصديق.

ومن مجموع أقوالهم فإنه يستنتج أنهم يقررون عدة حقائق مهمة

أبرزها الناحية الدينية والقومية فى انتشار اللغة العربية وارتباطها بالقرآن الكريم الذى أتاح لها أعظم فرص البقاء، والخلود، وكذا الإقرار بتمييز خصائصها كلغة من حيث كونها أقدر اللغات على التوالد والاشتقاق، وأغنى اللغات بالمترادفات، وأكثرها إيجازاً، وكذا الإشارة لكونها لغة كل المسلمين وجزء من حقيقة الإسلام، وهى ترجمان لوحى الله ولغة كتابه ومعجزة نبيه ولسان دعوته وسبيل العبادة وتلاوة القرآن؛ **فالعربية لغة كل المسلمين وثقافتهم وفكرهم**.

وسمو العربية آت من منزلتها الروحية ومن منزلتها اللغوية الاستيعابية الحضارية.

وإسهامها فى الحياة العلمية والتعبير العلمى لدى العرب تأكيد لمرونتها وسعتها.

ولا نغفل الإشارة إلى **الجانب القومى فى اللغة** وكونها مُجمعة للمشاعر ومُقربة للفكر؛ ولذا فكانت أحد عوامل صمود أهل الجزائر أمام الاستعمار الفرنسى، وحفظت لهم شخصيتهم واستقلاليتهم وانتماءهم.

جـ- اللغة العربية والبيان:

اختصت اللغة العربية بخصيصة **(البيان)**، وهذا يتضح من قوله سبحانه ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾[**الشعراء**: ١٩٥].

حيث وصف الله تعالى اللسان العربى بأبلغ ما توصف به اللغة وهو (البيان) ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾، والبيانُ هو أهم وظائف اللغة وأفضل ما توصف وتختص به، وعندما يرد الوصف من الخالق سبحانه دل ذلك على تحقق هذه الصفة فيها بقدر عظيم؛ وعلى وفائها بالإبانة من أكمل الوجوه. ويتمثل بيان العربية فى كمال البيان اللغوى وليس مجرد الإبانة لأن هذا يتحقق بغير اللغة العربية.. وفى مجال العبارات العربية نجد سعتها ووضوحها وكثرة ترادفها، وغناء ألفاظها، وثراء مادتها، وغزارة مفرداتها، وحسن تأليف

مبانى الكلم؛ فضلاً عن وجود خصيصة الاشتقاق، والتى جعلت اللغة العربية أكثر إنتاجاً وتوكيداً.

والمتأمل فى صدر **سورة الرحمن** يجد بعض النعم والآلاء، التى امتن الله بها على عباده، ومنها (نعمة البيان) وجاءت هذه النعمة مقدمة على نعم كونية عظيمة، حيث يقول تباركت أسماؤه ﴿**الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾**﴾ [**الرحمن**: ١-٤]، وهنا يبدو تفوق العربية حيث نجد الربط بين القرآن - الذى هو عربى - وبين الإنسان وبين نعمة البيان؛ التى هى احدى نعم الله العظمى، وجاء فيها قوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه البخارى: عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا، فعجب الناس لبيانهما؛ فقال ﷺ «إن من البيان لسحرا» والمعنى: إن هذا البيان قد يبلغ فى روعته وشدة تأثيره على النفوس واستحواذه على المشاعر مايبلغه السحر.

والبيان قال عنه الجاحظ أنه اسم جامع لكل شئ كشف لك قناع المعنى، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو المعنى الذى سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه، ويحث عليه؛ بذلك نطق القرآن؛ وبذلك تفاخرت العرب (البيان والتبيين ١/ ٧٥ - ٧٦).

ويتسع البيان لمعانى الفصاحة، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب؛ مع وضوح اللسان وكشفه وإيضاحه وإظهاره للمقصود.

ومن هنا كانت الفصاحة إحدى نعم الله تعالى، ولذا يُستعاذ من العى والحصر، وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله فى السلامة منهما، **قال النمر بن تولب**:

أعِذْنِى ربٍّ من حصَرٍ وعِـىٍّ ... ومـن نَـفْسٍ أعالجُهَا عِلاجـا

وهذا كقول بشار بن برد:

وَعِـىُّ الفَعَـالِ كـعِىِّ المقــال ... وفى الصَمت عىٌّ كَعِى الكلم

ويقول أحدهم (إسماعيل بن محمد) مادحاً نفسه:

وإنى لسانى مِقولٌ لايخوننى   وانى لِما آتى من الأمرِ مُتْقِنُ

وفى فضل الفصاحة: قيل لبُزُرْ جمهَّر بن البختكان الفارسىّ: أى شئ أستَر للعَىِّ؟ قال: عقلٌ يجمِّله، قالوا: فإن لم يكن له عقلٌ، قال فمالٌ يستره. قالوا: فإنْ لم يكن له مالٌ. قال: فإخوان يُعبرِّون عنه. قالوا: فإن لم يكن له إخوان يُعبرِّون عنه. قال: فيكون عيِيًّا صامتاً. قالوا: فإن لم يكن ذا صمت. قال: فموت وحىٌ خيرٌ له من أن يكونَ فى دار الحياة. (البيان والتبيين ١/ ٧).

وقد سأل موسى عليه السلام اللَّه القدير حين بعثه إلى فرعون، **بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته**؛ فقال حين ذكر القصة التى كانت فى لسانه، والحُبسة التى كانت فى بيانه ﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾**﴾ [**طه**: ٢٧، ٢٨].

وقال موسى عليه السلام ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**﴾ [**القصص**: ٣٤]. وقال ﴿**وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي**﴾ [**الشعراء**: ١٣] رغبةً منه فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع.

وقد استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام، وَحَلَ عقدة لسانه، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة ﴿**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ**﴾ [**طه**: ٣٦].

وقد ذكر الله تعالى لنبيه ﷺ حال قريش فى بلاغة المنطق ورجاحة الأحلام وصحة القول، وبلاغة الألسنة ﴿**فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ**﴾ [**الأحزاب**: ١٩].، وقال: ﴿**وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾ [**البقرة**: ٢٠٤]، وقال: ﴿**أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [**الزخرف**: ٥٨].

ولذا أرسل الله كل نبى بلسان قومه؛ ليبين لهم؛ لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهم، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد.

ولذا يقول الجاحظ فى فضل الإبانة والفصاحة «فإذا كان المعنى شريفاً واللفظُ بليغاً، وكان صحيح الطبع، بعيداً عن الاستكراه، ومنزَّها عن الاختلال، مصوناً عن التكلف، صنَعَ فى القُلوب صنيعَ الغيث فى التُّربة الكريمة، ومتى فَصَلَت الكلمةُ على هذه الشّريطة، ونفذَتْ من قائلها على هذه الصِّفة، أصحَبهَا الله من التوفيق ومنحها من التأييد؛ ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدورُ الجبابرة، ولايذهل عن فهمها عقولُ الجهلة».

(البيان والتبيين: ١/ ٨٣).

ونخلص إلى أهمية الفصاحة، وكونها تحقيقاً لمعنى الإجادة فى اللغة، والخلوص من اللحن، وسلامة التراكيب، وغروبة الألفاظ، وطلاقة اللسان بالكلام العربى، وسلامة النطق هى الفصاحة، ولهذا - وكما سيتضح- سأل الصحابة رسول الله ﷺ «مالك أفْصَحَنا وَلَمْ تَخْرُج من بين أظهرنا؟» وقوله ﷺ عن نفسه «أنا أفْصَحُ العرَب».

ولأهمية الفصاحة قال الرازى «الفصاحة أشهر العلوم وأجلها لأنها طريق الإعجاز القرآنى، وهى ترجع إلى الألفاظ والمبانى».

(ارجع إلى نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، ص١١٥).

ولعل تناولنا للبيان والفصاحة يقودنا إلى شىء من الإفاضة فى حال لغتنا العربية هذه الأيام، لنرى الفرق بين الصورة المثالية للعربية وبين واقعها المعاش، وهذا ما نفصله فيما يلى.

رابعاً: لغتنا العربية اليوم:

ثَمَّ تساؤل مهم نحاول الإجابة عنه عن حال اللغة العربية هذه الأيام.

لايعجب المرء كثيراً عندما يتأمل فى واقعنا اللغوى والتاريخى، فيرى أن لغتنا العربية مثلت تحدياً عظيماً أمام أفكار هدامة استهدفت اللغة، ولعل **ما سُمى بمشكلة الفصحى والعامية** أحد مظاهر هذه التحديات، وهى مشكلة صنعها الاستعمار وأعوانه عندما وجدوا لغة عليا للفكر والأدب وهى الفصحى، وفى المقابل لغة مستعملة فى التخاطب اليومى وهى العامية، وهذا أمر موجود فى سائر اللغات الحسية، وليس ثمة مشكلة فى ذلك.

«لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية؛ **ليحارب الفصحى، تمزيقاً لوحدتنا اللغوية والفكرية، فراجت دعاوى تتهم الفصحى بالعقم والبداوة وتلقى عليها مسئولية تخلفنا، وتدعو للعامية؛** فتزعم لها القدرة على الوفاء بحاجات وجودنا اللغوى الحديث، وترى فيها المفتاح السحرى لتقدمنا العلمى والحضارى والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير وتعليم الأميين»[1].

والأدهى من ذلك أن اقترنت الدعوة إلى العامية بوصف بعضهم للهجة العامية المصرية بأنها لغة سابقة للغة العربية والدعوة إذن إلى التماس لغتهم القديمة، ومنهم من قال أن اللغة العربية لغة أجنبية، وأنه يجب أن تُحول؛ لتعود مصر إلى لغتها القديمة.

وهذه الدعاوى لاحقيقة لها، وقد رُدّ عليها، واتُهم بعض العلماء من قال بأن اللغة العربية فى مصر لغة أجنبية بأنهم قوم مجرمون؛ يستأهلون التأديب.

وسعياً إلى تغريب اللغة العربية، وإقصاء القرآن أساساً عن طريق اللغة شجعت حكومة الاحتلال على إنشاء جرائد باللغة الدارجة، كما ظهرت مؤلفات تدعو للغرض ذاته، **وقد أحسن شاعرنا حافظ إبراهيم عندما لخص هذه الدعاوى على لسان العربية بقوله:**

---

(١) عائشة عبدالرحمن: لغتنا والحياة، القاهرة، دار المعارف، بمصر، ١٩٧١، ص٩٣.

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى وناديت قومى فاحتسبت حياتى[1]
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى عقمت فلم أجزع لقول عداتى

ولعلك تدهش عندما يحمل بعض المثقفين لواء الإصلاح والتمصير والتيسير والتلخيص فيدعون إلى كتابة الحروف العربية باللاتينية، أو استبدال الخط العربى باللاتينى. . ومن ذلك دعاوى أحمد لطفى السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمى ولويس عوض. وهذه الدعاوى كلها زائفة وباطلة ومُغرضة، وهى تصدر عن أناس يعلمون أن **اللغة العربية هى حجر الزاوية فى وحدة هذه الأمة وكيانها كله،** وأن الأخذ بدعاوى التطوير والتعديل والتحسين هو فصل لهذه الأمة عن تراثها، وإبعادها عن هداية لغة القرآن الكريم.

كل هذا تحت دعوى: إصلاح اللغة، وتيسيرها، وتبسيطها وتهذيبها وتسهيل كتابتها. . وهى فى الواقع دعاوى لإزالتها وهدمها وإبعادها.

وثم مغالطات كثيرة أخرى ودعاوى باطلة أُريد بها النيل من العربية وتشويهها وبيان عجزها، وعدم قدرتها على الوفاء بحاجات العصر ولانجد سوى أن نقرر «أن اللغة العربية لو كانت عاجزة عن الوفاء بمطالب الحياة والعصر مانزلت بها لغة القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[2].

لكنك عندما تتأمل واقع اللغة العربية هذه الأيام، ترى أنها قد **هانت وأُهملت على يد أبنائها، وصح أن نقول أن هناك أزمة لغوية،** وهناك ضعف لغوى، وهناك فساد للذوق اللغوى، وهناك تغريب لغوى ولانستطيع أن نناقش أى ظاهرة مما تقدم بمبعد عن عمليات تعليم اللغة العربية فى مدارسنا، وعن جفاء بل وجفاف مايُقدم من مادة لغوية، وكون مايُدرس بمعزل عن السليقة اللغوية وهذا

---

(١) حصاتى : عقلى.
(٢) جمال مصطفى العيسوى، أحمد عبده عوض: اللغة العربية نماذج أدبية نقدية، مطبعة أورفو، ١٩٩٢، ص٥٣ - ٥٤.

أمر لا يدخل فى نطاق اهتماماتنا هنا، ولكن وجب الإشارة إليها، وترتب على ما تقدم أن اللغة العامية تسود على ألسنة المعلمين للغة فى التعليم العام بل والجامعة وعلى ألسنة الدارسين للغة، بل والمتخصصين فيها؛ حيث يتعامل غالبية هؤلاء باللغة العامية رغم عملهم بميدان اللغة العربية تعليماً وتعلماً وتخصصاً.

وإذا كان المتخصصون يتساهلون فى استخدام اللغة العربية والتحدث بها، فليس عجباً أن يمتد التساهل إلى من دونهم، فالمثقفون يستخدمون كلمات أجنبية فى أحاديثهم، وكأن العربية تعجز عن الوفاء بتعبيرهم، وترصد صوراً كثيرة لعدم العناية بالعربية وتغليب الكلمات الأجنبية عليها فى الإعلانات وأسماء الشوارع والمحلات وعلى لسان المحاضرين، وفى حياتنا اليومية، كما تجد الترخيص الشديد فى استعمال اللغة والأخطاء الكثيرة فيها، واستخدام العامية المبتذلة والسوقية فى الصحف والمجلات وفى الإذاعتين المسموعة والمرئية، وعلى لسان المعلقين والمتحدثين وفى المسارح والأغانى والندوات وغيرها. وهذا كله يؤكد وجود مظاهر متعددة فى مجتمعنا لنبذ الفصحى فى الكتابة والتحدث، وفى حملات التغريب، وشيوع الأخطاء التى لاتخطئها العين، وأضحى ذلك مقبولاً لكثرة تكراره وشيوعه، وعندئذ تعم الكارثة، ويضيع لساننا العربى.

وختاماً فإن اللسان العربى ينبغى أن نحافظ عليه نطقاً وكتابة دون خضوع لأية مبررات، تؤدى فى النهاية إلى التخبط والخلط الشديد بينه وبين الألسن الأخرى، حتى ولو كان التبرير خاصاً بالسياحة والاستثمار والانفتاح، تلك الدعاوى التى يعانى منها مجتمعنا معاناة قد تؤدى فى النهاية إلى فقدان الهوية، وأقوى مقوم للوحدة بين الشعوب العربية[1].

وحفاظنا على اللغة، هو حفاظ على تراث هذه الأُمة، وعنايتنا باللسان العربى هو إقبال وإعلاء وافتخار لنا، وهو واجب حث عليه ديننا على نحو ما سيتضح فى المباحث التالية.

---

(١) أحمد سمير بيبرس: الواقع اللغوى والهوية العربية، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٩ ، ص١١٧ .




المبحث الثانى
اللغة العربية
فى القرآن الكريم



المبحث الثانى : اللغة العربية فى القرآن الكريم

فُضِّلت اللغةُ العربية بالقرآن الكريم، وبه شَرُفت وارتفعت وخلدت وعلت، كما استطاعت أن تكون أداة طيعة لآيات الذكر الحكيم، ومعانيه العظيمة، وذلك بأساليبها التعبيرية الفائقة البديعة.

والعلاقة عضوية وأساسية بين اللغة العربية والقرآن الكريم ، فاللغة وعاء الكتاب الخالد، فيها صُب، وبها نزل وحُفظ وخُلد، والقرآن الكريم شرفها، ورفعها، وزادها فخراً وثراءً وبهاءً وعظمة؛ ولذا فكل مسلم محتاج إلى هذه اللغة -الشريفة-؛ ليفقه دينه، وليؤدى العبادات المفروضة، ولكى يأخذ الدين من منبعه الأصيل.

كما أن كل عالم ومتعلم فى حاجة لهذه اللغة؛ لأنها أساس كل علم ومناطه؛ أكان ذلك من علوم الدين -وهذا أوكد- أو من علوم الدنيا -وهذا أثبت.

لكننا فى حاجة للتأمل فى كتاب الله العظيم؛ لنرصد الآيات التى ورد فيها لفظ **(العربية)** فى القرآن الكريم ودلالتها ومناسبتها.

والحق أننا لانجد لفظ (العربية) مجرداً ومُعرفاً هكذا فى القرآن الكريم، ولكن نجد مايدل عليه فى اشتقاقين اثنين هما: (عربى - فى ثلاثة مواضع) و(عربيا - فى ثمانية مواضع) أى فى إحدى عشرة آية فى القرآن الكريم، وهذا ما نوضحه فيما يلى:

ألفاظ العربية فى القرآن الكريم:

وُصف القرآن الكريم بكونه (عربياً) فى ست آيات، وجاء وصفه باللسان العربى فى ثلاث آيات، وجاء تفصيل كونه عربياً، وليس أعجمياً فى آية واحدة.. وجاء وصفه بالحكم العربى فى آية واحدة، وبذا يكون مجموع ماورد من ألفاظ (العربية) فى القرآن الكريم إحدى عشرة آية باشتقاقين اثنين هما (عربياً - عربى).

وهذا ما نفصله فيما يلى:

أولاً: وصف القرآن الكريم بكونه (عربياً):

الموضوع الأول:

يقول الحق سبحانه :

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾ [يوسف: ١، ٢].

وصف الحق سبحانه الكتاب المبين (القرآن الكريم) بأنه عربى، و (قرآناً) جاءت منصوبة على الحال، و (عربياً) نعت لقوله (قرآناً).

يقول الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية «ولغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى؛ التى تقوم بالنفوس فلهذا أُنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض». (٢/٤٦٦).

أما الإمام العلامة أبوالفضل شهاب الدين الألوسى البغدادى صاحب تفسير **(روح المعانى)** فقد أفرد بضع ورقات لتفسير قوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فكان مما ذَكَرَ:

«اللغة العربية هى إحدى اللغات التى عُلمها آدم عليه السلام وكان يتكلم بها وبغيرها.. وادعى بعضهم أنها أول اللغات وأن كل لغة سواها حدثت بعدها إما توفيقاً وإما اصطلاحاً، واستدلوا على أسبقيتها بكون القرآن كلام الله تعالى، وهو عربى، وفيه ما فيه، وهى أفضل اللغات، حتى حكى شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أبى يوسف عليه الرحمة كراهة التكلم بغيرها لمن يحسنها من غير حاجة، ثم أورد حديث «أحبوا العرب لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى»، (وهو مروٍ عن ابن عباس فى رواية وعن أبى هريرة فى رواية أخرى، وأخرجه الطبرانى، والحاكم، والبيهقى

وآخرون)، ثم يقول: ولايخفى على الخبير بمزايا الكلام أن فى الكلام العربى من لطائف المعانى ودقائق الأسرار ما لا يستقل بأدائه لسان.

وأخرج ابن عساكر فى التاريخ عن ابن عباس «أن آدم عليه السلام كانت لغته فى الجنة العربية فلما أكل من الشجرة سُلّبها فتكلم السريانية فلما تاب ردها اللهُ عليه». **وقال عبد الملك بن حبيب:** كان اللسان الأول الذى هبط به آدم عليه السلام من الجنة عربياً إلى أن بَعُد وصار سريانياً، وهو منسوب إلى أرض سورية وهى أرض الجزيرة.

ثم يقول «وأول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية هو يعرب ابن قحطان فهو أول من تكلم بها» وهذا ماذكره ابن عساكر فى التاريخ بسند رواه عن أنس بن مالك.

ثم يقول: واللغة العربية كانت موجودة قبل إسماعيل عليه السلام وكانت لغة حمير، لكن أول من تحدث بالعربية المحضة (عربية قريش) هو إسماعيل عليه السلام، وكان ذلك من الله تعالى كما أوضحت ذلك الأحاديث (التى سنوردها فى المبحث الثالث) (الألوسى ١١/ ١٧١ - ١٧٤).

وقوله تعالى﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. أى لكى تفهموا معانيه، وتحيطوا بما فيه من البدائع أو تستعملوا فيه عقولكم فتعلموا أنه خارج عن طوق البشر مشتمل على ما يشهد له أنه منزل من عند خلاق القوى والقدر.. وهذا بيان لحكمة إنزاله بتلك الصفة.

واللام فى قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ بمعنى لام التعليل على طريق الاستعارة التبعية.

الموضع الثانى:

يقول سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

أى أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربى مبين فصيح لا لبس فيه ولا عى؛ وذلك لكى يفهمه العرب، ويقضوا على ما فيه من النَظم المعجز الدال على كونه خارجاً عن طوق الآدميين؛ نازلاً من رب العالمين.

وقال الطيبى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ أى فصيحاً ناطقاً بالحق ساطعاً بيانه؛ لعلهم يَحدثُ لهم التأمل والتفكير فى آياته، وبيناته الوافية الشافية؛ فيذعنون ويطيعون.

فنزول القرآن بالعربية -وهى لغتهم- عساه يكون سبيلاً لتقواهم للَّه تعالى فإن لم يتقوا فلا أقل من أن يُحْدِث لهم ذكراً، وشرفاً، وصيتاً حسناً.

وجاء وصفه بالعربية **لتبيان معنى الكمال**، ولتذكيرهم بإعجازه وحثهم على الأخذ به، والاتعاظ بما فيه، لأنه لاتوجد عوائق لغوية؛ تحول بينهم وبين فهمه والاستماع إليه، والاعتبار بما فيه.

الموضع الثالث:

يقول الحق جل شأنه ﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴿٢٧﴾ **قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ أى هو قرآن بلسان عربى مبين؛ لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان، ووضوح، وبرهان.

وهنا نلاحظ الاستطراد فى الوصف بقوله تعالى: ﴿**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾ كوصف ثانٍ للقرآن الكريم، فهو ليس عربياً فقط، ولكنه مع ذلك لا التواء فى أسلوبه ولاغموض فى لغته، فقد اشتمل - **كما يقول الإمام الألوسى** - «أبدع الطرائق الرائقة الرائعة، وأعجب الأساليب الفائقة اللائقة».

ولذا فهنا إضافة بديعة فى قوله تعالى ﴿**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**﴾، أى لا اختلال فيه بوجه من الوجوه، وهو أبلغ من مُعوج، والعِوج بالكسر يقال فيما يُدرك بفكر وبصيرة، والعَوج بالفتح يقال فيما يُدرك بالحس.

ولذا عبر سبحانه بالعِوج بالكسر ليدل على أنه بلغ إلى حد لايدرك العقل فيه عوجاً؛ فضلاً عن الحس. وقيل المراد بالعِوج اللبس والشك ونجد تعضيداً لاستقامة القرآن الكريم عن الاعوجاج فى قوله سبحانه ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا**﴾ [**الكهف**: ١]. أى لم نجعل فيه اعوجاجاً ولازيغاً ولا ميلاً بل جاء معتدلاً مستقيماً واضحاً بيناً.

وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ اللام: للتعليل، أى لعل نزوله بهذه الكيفية من مناسبة لغته للغتهم، ومن كونه لا لبس فيه ولا اعوجاج ولاتعقيد يكون داعياً لهم للاهتداء، ولعلهم يحذرون مافيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد؛ حيث لا عذر لهم فى لغة القرآن التى لاتخفى عليهم.

الموضع الرابع:

يقول الحق سبحانه ﴿**حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣**﴾ [**فصلت**: ١-٣].

فى قوله تعالى: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ أى بُيِّنت معانيه، وأُحكمت أحكامه ويُسرت آياته، واستقامت معانيه، وصفت لغته، وارتقى أسلوبه وهذه هى الصفة الأولى (تفصيل الآيات) ثم وُصِّف بكونه ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ استطراداً فى تبيان خصائصه، وتكملة وتوضيحاً ونشراً ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ أى فى حال كونه قرآناً عربياً، بيناً واضحاً، فمعانيه مفصلة، وألفاظه واضحة غير مشكلة، فهو معجز لفظاً ومعنى.

والمعنى فى الآية الكريمة: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ أى هو كتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية، بُينت معانيه، ووضحت أحكامه، بطريق القصص والمواعظ والأحكام والأمثال، فى غاية البيان والكمال، أى فى حال كونه قرآناً عربياً واضحاً جلياً نزل بلسان العرب (لقوم يعلمون) أى لقوم يفهمون تفاصيل آياته، ودلائل إعجازه؛ فإنه فى أعلى طبقات البلاغة، ولايتذوق أسراره إلا من كان عالماً بلغة العرب.

وجدير بالإشارة أن هذه الآية الكريمة، كانت إحدى الروادع والقوارع والزواجر، **التى جعلت عتبة بن ربيعة ما إن سمعها حتى رجع إلى قريش بوجه غير الذى ذهب به**؛ كما أخرج ابن المنذر والبيهقى وابن عساكر عن محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه قال:

«حُدثت أن عتبة بن ربيعة وكان أشد قريش حلماً؛ قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش، ورسول اللّه ﷺ جالس وحده فى المسجد، يا معشر قريش ألا أقوم إلى هذا فأكُلمه، فأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل منها بعضه، ويكف عنا؟ قالوا: بلى يا أبا الوليد، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فذكر الحديث فيما قال له عتبة، وفيما عرض عليه من المال، والملك، وغير ذلك. حتى إذا فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع منى». قال: أفعل، فقال رسول الله ﷺ: **بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾** فلما سمعها عتبة أنصت لها. وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة، فسجد فيها ثم قال: «سمعت ياأبا الوليد؟» قال: سمعت: قال: «أنت وذاك». فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله **لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به**. فلما جلس إليهم قالوا: ماوراءك يا أبا الوليد؟ قال: والله إنى قد سمعت قولاً ماسمعت بمثله قط، والله ماهو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة والله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ».

وأخرج أبونعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما قرأ النبى ﷺ على عتبة بن ربيعة ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾ أتى أصحابه فقال: ياقوم أطيعونى فى هذا اليوم، وأعصونى بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت مثله قط، وما دريت ما أرد عليه.

الموضع الخامس:

يقول الحق سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

أى أوحيناه بلغة العرب، أنزلناه قرآناً عربياً بلسان قومك، كما أرسلنا كل رسول بلسان قومه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقوله سبحانه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى واضحاً جلياً بيناً.

وقوله جل شأنه ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ يعنى مكة، وقيل لها أم القرى لأن الأرض دُحيت من تحتها ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من سائر الخلق ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ أى يوم القيامة. والمعنى: أن القرآن الكريم أُوحى إليك بلسان قومك، واضحاً بيناً، وذلك ليُنذَروا به، وجاء وصفه (عربياً) أى بلغتهم، ولا حجة لديهم فى عدم فهمه، لأنه من جنس لغتهم؛ التى أبدعوا فيها..

الموضع السادس:

يقول تعالى وعز ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: ١-٣].

جاء نعت الكتاب بالمبين لأن الله تعالى بيّن فيه أحكامه وفرائضه و﴿جَعَلْنَاهُ﴾ أى سميناه ووصفناه(*) . قال مقاتل: لأن لسان أهل السماء عربى و ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى بلغة العرب فصيحاً واضحاً.. وهو المُقسم عليه؛ أنزلناه بلغة العرب، مشتملاً على كمال الفصاحة والبلاغة، بأسلوب حكيم وبيان معجز.

(*) والجعل هنا معناه (بيناه) أى بيناه قرآناً عربياً وقيل: قلناه، وقيل: صيرناه. ومنه قوله تعالى ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] وقوله ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩] قال الزجاج: الجَعْل هنا بمعنى التسمية: القول والحكم على الشىء، والجعل بمعنى الخلق. ومنه ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] كما يرد الجعل بمعنى العطاء وبمعنى الأخذ.. الخ.

(ارجع إلى لسان العرب ١١/ ١١٠ - ١١٢)

و﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى لكى تفهموا أحكامه، وتتدبروا معانيه، وتعقلوا أن أسلوبه الحكيم خارج عن طوق البشر.

قال الإمام البيضاوى: أقسم تعالى بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربياً، وهو من البدائع البلاغية؛ لتناسب المقسم والمقسم عليه، تنبيهاً على أنه لاشىء أعلا منه، فيُقسم به، وهذا يدل على شرف القرآن وعزته بأبلغ وجه وأدقه.

(البيضاوى ٣/ ٢٨٨) .

وهكذا عرضنا للمواضع الستة التى جاء فيها وصف القرآن الكريم بأنه عربى، فى قوله تعالى-بنفس التركيب- (قرآنا عربيا). أما وصف القرآن باللسان العربى، فقد ورد فى ثلاثة مواضع؛ نتناولها فيما يلى:

ثانيا: وصف القرآن الكريم باللسان العربى:

الموضع الأول:

يقول الحق سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

وتطرح الآية الكريمة سؤالاً مهماً: كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل، كيف يتعلمه من رجل أعجمى؟.

﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أى لسان الذى يزعمون أنه علمه وينسبون إليه التعليم أعجمى.. وقد اختلف فى اسم هذا الذى قالوا إنما يعلمه، فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه (جبر) كان نصرانياً فأسلم وكانوا يقولون على الرسول الكريم ﷺ لمعرفتهم أنه أمى «**إنما يعلمه جبر**» وهو أعجمى.. ولكن: كيف يعلمه جبر وهو أعجمى هذا الكلام الذى لايستطيع الإنس والجن، أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها.. وذكر النقاش: أن مولى جبر كان يضربه ويقول له: أنت تعلم محمداً، فيقول: لا والله بل هو يعلمنى ويهدينى.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: كان بمكة غلام أعجمى رومى لبعض قريش، يقال له **(بلعام)،** وكان رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً ﷺ من جهة الأعاجم.

وهناك روايات عدة بخلاف ما ذكرناه، فى سبب نزول هذه الآية؛ نورد بعضها:

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردوية بسند ضعيف، عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة اسمه بلعام، وكان عُجمى اللسان؛ فكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام فأنزل الله ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...**﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقى فى شعب الإيمان، عن ابن عباس فى قوله ﴿**إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ**﴾ قال: قالوا إنما يعلم محمداً **عَبْدَة بن الحضرمى** -وهو صاحب الكُتب- فقال الله تعالى: ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال: كان النبى ﷺ يقرىء غلاماً لبنى المغيرة أعجمياً، يقال له **مقيس**. فأنزل الله ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ**﴾.

وأخرج آدم بن أبى إياس وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الإيمان، عن مجاهد ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...**﴾ قال: قول قريش: إنما يعلم محمداً **ابن الحضرمى** وهو صاحب كتب ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ**﴾ يتكلم بالرومية ﴿**وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم، عن الضحاك فى الآية قال: كانوا يقولون : إنما يعلمه **سلمان الفارسى**، وأنزل الله: ﴿**لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ**﴾.

وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال: كان رسول الله ﷺ إذا آذاه أهل مكة، دخل على عبد لبنى الحضرمى يقال له: **أبويسر**، كان نصرانياً وكان قد قرأ التوراة والإنجيل، فسأله وحدثه؛ فلما رآه المشركون يدخل عليه قالوا: يعلمه أبواليسر. قال الله: ﴿هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ولسان أبى اليسر أعجمى.

ويعقب على هذه الروايات الإمام القرطبى بقوله:

«والكل محتمل، فإن النبى ﷺ ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة».

وقال النحاس: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة، لأنه يجوز أن يكونوا أومئوا إلى هؤلاء جميعاً، وزعموا أنهم يعلمونه.

وقوله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ اللسان: مجاز مشهور عن التكلم، وقيل اللسان هنا أى جارحة الكلام، وهذا رأى ابن عطية، والأعم أنه أراد باللسان القرآن.

و﴿يُلْحِدُونَ﴾ من الإلحاد: الميل أى مال عن القصد، ويميل قولهم عن الاستقامة، والمعنى أى لسان الذى يميلون إليه، ويشيرون أنه أعجمى، والملحد الذى أمال مذهبه عن الأديان كلها.

و﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ غير البين،وعجم ضد الإبانة والإيضاح ويعنى الإبهام والإخفاء، والأعجم الذى لايفصح، ومنه (بهيمة عجماء) لأنها لاتوضح عن نفسها والعرب تسمى من لايعرف لغتهم، ولايتكلم بكلامهم أعجمياً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية فهذا القرآن غاية فى الفصاحة، فكيف عليك لمن لسانة أعجمى أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربى المبين؟ ومن أين للأعجمى أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز فى فصاحته وبلاغته وبيانه؟.

والمراد أنه: **ذو بيان وفصاحة،** ولذا جاء وصف (مبين) بعد (عربى) والحال: أن علمهم بأعجمية هذا البشر ، الذى ادعوه وعربية هذا القرآن كان ينبغى أن يمنعهم عن مثل تلك المقالة. . والقرآن الكريم يكشف تناقض فكرهم، فهذا البشر الأعجمى لايفهم لغتهم جيدا، والقرآن عربى يفهمونه بأدنى تأمل فأين استقامة فكرهم؟.

ولذا يقول الكرمانى: المعنى أنتم أفصح الناس وأبلغهم وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا، وقد عجزتم وعجز جميع العرب عن الإتيان بمثله فكيف تنسبونه إلى أعجمى ألكن وهو كما ترى، دليل قوى على كمال عجزهم وسوء مذهبهم، كما يقول القائل:

فَدعْهُم يَزعمُونَ الصُبْحَ لَيْلاً أَيُعْمِى النَاظِرونَ عَنْ الضِيَّاءِ؟

الموضع الثانى:

يقول الحق سبحانه ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾** ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

أى هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أنزلناه باللسان العربى الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحا ظاهرا قاطعا للعذر، مقيما للحجة، دليلا على المحجة وأخرج ابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ قال: بلسان قريش ولو كان غير عربى ما فهموه. . ويعضد قولَ مجاهد الآيات التالية لهذه الآيات ﴿ **وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾** ﴾ [الشعراء:١٩٨، ١٩٩] فلو أنزله الله أعجميا لكانوا أخسر الناس به لأنهم لايعرفون العجمية ولو نزل على بعض الأعجمين لكانت العرب أشر الناس فيه، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو. . . ولو حدث ونزل بغير العربية لكان لهم العذر فى عدم الهداية، ولذا جاءت الآيات التالية قارعة قوية زاجرة لاتلتمس لهم عذرا، ولا تقبل له ضراعة ﴿ **كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ**

الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٠٠ - ٢٠٢].

الموضع الثالث:

فى قول الحق تقدست أسماؤه ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٢].

يقرر الحق سبحانه أن القرآن الكريم مصدق وموافق ومؤكد لما قبله من الكتب، فهو مصدق للتوراة التى كانت هداية ورحمة، ثم أردف وصفه بأنه: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى فصيحا بينا واضحا فبعد أن نعته الحق سبحانه بتصديقه للتوراة كتواصل زمانى ودينى وروحى، وإعلان لوحده الدين لله تعالى، وتكامل الأديان ذكر أنه جاء بأفضل لسان وأشرف لغة، **ولذا يقول سفيان الثورى:** ما نزل وحى إلابالعربية ثم ترجم كل نبى لقومه، واللسان يوم القيامة بالسريانية، فمن دخل الجنة.. تكلم العربية (ابن كثير٣/ ٣٤٧).

هذا فيما يتعلق بالمواضع الثلاثة، التى ورد فيها وصف القرآن باللسان العربى، وذلك بتركيب واحد فى موضعين ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وفى الموضوع الثالث بقوله تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ وإذا كان اللسان العربى قد فُضِّل وخُلِّد وشُرِّف بنزول القرآن الكريم؛فإنه الحق سبحانه يقرر أفضلية كونه عربيا وليس أعجميا.. بعيدا عن نعته بالعربية.. أونعته اللسان بالعربى - فى موضوع واحد فقط؛ نعرض له فيما يلى:

ثالثا: أفضلية كون القرآن عربيا وليس أعجميا:

يقول الحق سبحانه: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت: ٤٤].

يشير تعالى إلى فصاحة القرآن وبلاغته، وأحكامه فى لفظه وآياته ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود:١].

ثم يقرر الحق سبحانه أنه لو أُنزل بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد لولا فُصلت آياته أعجمى وعربى. أى لقالوا هلا أُنزل مفصلا بلغة العرب، ولأنكروا ذلك، فقالوا أعجمى وعربى أى كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لايفهمه؟.

وإذا أعدنا قراءة الآية الكريمة لوجدنا أن قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ جواب لقولهم : هلا أنزل القرآن بلغة العجم، والضمير فى لقالوا ﴿ لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ أى بُينت لنا، وأوضحت بلسان نفقهه. .ورأى بعضهم أن المراد هلا فصلت آياته فجعل بعضها أعجميا لإفهام العجم، وبعضها عربيا؛ لإفهام العرب والمقصود من الجملة الشرطية ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ إبطال مقترحاتهم وهو كونه بلغة العجم، باستلزامه المحذور، وهو فوات الغرض منه، إذ لامعنى لإنزاله أعجميا على من لا يفهمه أو الدلالة على أنهم لاينفكون عن التعنت فإذا وجدوا الأعجمية طلبوا أمراً آخر وهكذا. .

وقوله تعالى:﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بهمزتين الأولى للاستفهام والثانية همزة أعجمى والاستفهام يتلوه مد، والمراد كلام أعجمى ورسول عربى، وحاصله أنه لو أنزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا مالك وللعجمة أوما لنا وللعجمة.

والذى نرتضيه فى قوله تعالى: ﴿وَعَرَبِيٌّ﴾ والله تعالى أعلم أى المخاطب به وهو الرسول ﷺ، وذهب بعضهم إلى أن المراد هو المرسل إليه من العرب، ثم يكون رد الحق سبحانه عليهم ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ .

أى قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى وشفاء لصدره من الشكوك والريب، أما الذين لايفهمون ما فيه، ولايدركون عظمته فقد صُمت آذانهم،

وعُميت قلوبهم؛ فلا يهتدون إلى ما فيه من البيان، وهذا الذى يسمعون ويتعامون عن آياته أشبه فى عدم فهمهم وانتفاعهم بما دعوا له بمن ينادى من مسافة نائية فهو يسمع الصوت، ولايفهم تفاصيله ولامعانيه، أو لايسمع ولا يفهم.

رابعاً: وصف القرآن بالحكم العربى:

وذلك فى قوله تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧)** ﴾ [**الرعد**: ٣٧].

جاء وصفه هنا بقوله تعالى: ﴿**حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾ وهو وصف لم يتكرر فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع، والمعنى: كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معرباً؛ شرفناك به؛ فضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى.

وقوله تعالى ﴿**كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكماً عربياً، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ وهو عربى، فكذب مشركو مكة، وكذب العرب المتحزبون على النبى ﷺ بهذا الحكم.

وقيل: وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكماً عربياً، أى بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام. ورأى بعضهم أنه أراد بالحكم العربى القرآن كله، لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم.

وقفة تحليلية مع الإحدى عشرة آية السابقة:

١- الإعجاز القرآنى فى هذه الآيات:

المتأمل فى توقيت ومكان نزول الآيات السابقة **(إحدى عشرة آية)** التى جاء فيها لفظ (عربى-عربياً) كوصف للقرآن يجد أمراً عجيباً، مثيراً للدهشة، وداعياً للتأمل، ومحفزاً للتبصر والتعقل؛ **حيث وردت هذه الآيات جميعها**

فى سور مكية (أى نزلت قبل الهجرة) إلا موضعاً واحداً ورد فى سورة مدنية (بعد الهجرة) وتفصيل ذلك فيما يلى:

آيتا النحل والشعراء ﴿**لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ مكيتان، وآية فصلت ﴿**أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾ مكية، وآيات سور يوسف وطه والزمر وفصلت والشورى والزخرف ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ كلها مكية، وآية الاحقاف ﴿**لِسَانًا عَرَبِيًّا**﴾ مكية كذلك.

وهكذا نجد عشر آيات مكية، وُصّف فيها اللسان بأنه عربى وكذا القرآن، على نحو ما أوضحت الآيات.

أما الآية الحادية عشرة فهى فى سورة الرعد -وهى مدنية- وذلك فى قوله سبحانه: ﴿**كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا**﴾.

فما دلالة ذلك؟

لا يخفى على القارىء أن السور المكية كانت تخاطب كفار مكة ولذا جاءت قوارع زاجرة، وحججاً قاطعة؛ تحطم وثنيتهم فى العقيدة، وتدعوهم إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة، وتقيم الدليل عليهم.

كما تتحداهم فى فصاحتهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وجعل عاقبة هذا التحدى إمارة صدق النبى الأمى.

ولذا فقد جاء وصفه بأنه عربى ﴿**لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾، ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾، ﴿**لِسَانًا عَرَبِيًّا**﴾ **فى سور مكية**؛ تعجيزاً لهم، وإقامة للحجة عليهم حيث تحداهم القرآن، والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، قد فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، ورغم ذلك فقد عجزوا عن تحديه أو معارضته، وقد أخبر القرآن حين تحداهم بأن عاقبتهم الإخفاق، فإن قوى الثقلين مجتمعة تنقطع دون ذلك ﴿**لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾**﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولذا كان موقفهم من القرآن موقف المبهور المتحير الذى لايدرى إلا أنه أمام قوة فوق قواه، ونصب طاقة معجزة. ولم يجدوا إلا أن يقولوا ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣] ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٥].

وهنا يتأكد الإعجاز القرآنى فى كون الآيات التى وصفت لغته نزلت جميعها فى مكة (باستثناء آية واحدة) وأن الآيات جاءت -فى معظمها- قصيرة فى نظم خطابى؛ يُحرك العواطف، ويُنبه المشاعر، كما اتسمت بقوة المعارضة والرد والمناقشة، وهذا يتسق مع طبيعة آيات السور المكية ومع طبيعة المخاطبين من أهل مكة.

أما آية الرعد المدنية ﴿كَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ فلم يرد فيها لفظ (اللسان) وإنما ورد قوله سبحانه (حكماً) وهذا يتسق مع طبيعة الآيات المدنية؛ التى تناولت الأحكام والحدود والتشريع.

ولعلك تلحظ الإعجاز اللغوى للقرآن الكريم فى ألفاظه؛ التى لاترد عبثاً وإنما بحكمة وَقَدَر، وهذه اللفظة (حُكماً) تؤكد ذلك فأهل المدينة لم يكونوا موضعاً للتحدى اللغوى والإعجازى، كما أن الجماعة المؤمنة قد تكونت واستقرت، ودخلت فى صراعات أخرى مع المنافقين وغيرهم.

ولعل هذه الإضافة للإعجاز اللغوى فى القرآن الكريم تؤكد أن اللفظة القرآنية مقدرة ومحسوبة ونزلت بحكمة وقدرة، فما نزل من آيات وصف فيها القرآن بأنه عربى رأينا الآيات نزلت فى مكة؛ وصفاً للقرآن وللسان العربيين، والمراد منهما واحد.

وأما الآية التى نزلت بالمدينة فقد ناسبت مقامها ووافقت حال نزولها والمخاطبين؛ إذ جاءت معبرة عن أبرز سمات الآيات المدينة وهى كونها آيات أحكام، ولذا لانَمَل من تكرار النظر وإدامة التأمل فى قوله تعالى: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾

فى الآية المدنية أو ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ و﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ و﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فى الآيات المكية.

أهو قرآن أم لسان أم حكم؟

يظن البعض أن ثم تناقضاً بين هذه الأوصاف الثلاثة فى ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وفى﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾، و﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وفى ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾

ورغم أننا أشرنا للمعانى الثلاثة أثناء تطويفنا بالآيات الكريمة لكننا فى حاجة لبيان لغوى قاطع فى التفريق بين الكلمات الثلاث:

فما اللسان؟ «اللسان هو **جارحة الكلام**، والكلمة ترد بمعنى اللسان، وقال ابن برى: اللسان أى **الرسالة والمقال**، وقد يذكر على معنى الكلام، كما يذكر على معنى اللغة كلها، ومنه قوله تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾ [إبراهيم:٤]. **أى بلغة قومه**، ومنه قول الشاعر:

أتتنى **لسان** بنى عامر أحاديثها بعد قول نكر

قال ابن سيده: اللسان أى **اللغة، والرسالة، والكلام.**

ارجع إلى (لسان العرب ١٣/ ٣٨٥-٣٨٦).

إلى غير ذلك من الشواهد التى تؤكد أن المقصود باللسان أى اللغة من منظور أوسع، ويعضد هذا الرأى أن الإمام البخارى رحمه الله؛ أفرد باباً فى صحيحه تحت عنوان **(نزل القرآن بلسان قريش والعرب قرآناً عربياً بلسان عربى مبين)** روى فيه حديثاً عن أنس بن مالك رضى الله قال أمر عثمان ابن عفان رهطاً من الصحابة (وَذَكَرَ أسماءهم) بنسخ المصاحف، وقال لهم: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى عربية من عربية القرآن، فاكتبوها **بلسان قريش** فإن القرآن أُنزل بلسانهم ففعلوا. (البخارى ٦/ ٢٢٦).

وما الحُكم؟ الحُكم: العلم والفقه والقضاء بالعدل، وهو مصدر حكم يحكم، والحكيم ذو الحكمة ومنه: إن من الشعر لحِكمة، وهو بمعنى الحكم. **والحكمة معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.**

والمعنى أن الحكم - كما تقدم - بمعنى العلم والفقه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾ [مريم: ١٢] أى علماً وفقهاً، ومنه قولهم: الصمت حكم وقليل فاعله.

والقرآن وُصف بأنه الحكيم فى قوله ﷺ فى صفة القرآن: «وهو الذكر الحكيم» أى الحاكم لكم وعليكم، وهو المحكم الذى لا اختلاف فيه ولا اضطراب.

وقال الأزهرى: الحكم أى القضاء بالعدل، وأحكم الأمر أى أتقنه، وأحكمت الشيء فاستحكم: صار محكماً.

وقوله تعالى: ﴿ **الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ [هود: ١] أى أحكمت بالأمر والنهى والحلال والحرام، ثم فُصِّلت بالوعد والوعيد. وأُحكمت وفُصلت بجميع مايحتاج إليه من الدلالة على توحيد الله وتثبيت نبوة الأنبياء وشرائع الإسلام.

وحكم الشيء وأحكمه: أى منعه من الفساد، وحكم الرجل يحكم حكماً إذا بلغ النهاية فى معناه مدحاً لازماً، وقال مرقش:

يأتى الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال **حَكَمْ**

أى بلغ النهاية فى معناه. (لسان العرب/ ١٤٠ - ١٤٣).

وأما القرآن فلا خلاف على تعريفه وعلى مصادر اشتقاقه لغةً ودلالة.

ولسنا نجد تناقضاً بين الكلمات الثلاث، **فاللسان** تعبير عن اللغة بكليتها عقلاً ولفظاً؛ أى كعمليات وكأداء، **فالقرآن** بلسان عربى من حيث لغته ومعانيه واشتقاقاته ولفظه.. وهو **حكم** عربى أى قاضياً فاصلاً محيطاً ومفصلاً، وبلغ النهاية فى كل شيء. وهو جامع المعرفة والفقه والقضاء والشرائع والعبادات **فالقرآن هو اللسان لغة وعقلاً، وهو الحكم فصلاً وقضاء ومعرفة وشريعة فأين التناقض إذن؟**

٢- التركيب اللغوى فى الآيات الإحدى عشرة:

تبرز عدة ملاحظات مهمة عندما نعيد التأمل فى الآيات السابقة، حيث يتضح لنا مايلى:

عبر عن كيفية نزول القرآن الكريم فى هذه الآيات فى صور أربع هى: (التنزيل - الوحى - الجعل - ضرب المثل).

أما **التنزيل** فذلك فى سورة يوسف والرعد وطه فى قوله تعالى ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ -بالفعل المتعدى- وكذا فى سورتى فصلت ﴿تنزيل﴾ وفى سورة الشعراء ﴿نزل﴾.

وأما **الوحى** ففى موضع واحد فى الشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧].

وأما **الجعل** بمعنى الوصف والتقدير والتسمية والإرادة والاختيار فقد جاء فى موضعين فى قوله تعالى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]. وفى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]. أى قدرناه واخترنا له ذلك.

وأما **ضرب المثل** فقد جاء فى قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

وقد أردنا إثبات كيفية النزول المشار إليها فى الآيات؛ تأكيداً للتنوع الأسلوبى والثراء اللغوى فى القرآن الكريم، وتأكيداً لتبيان اختيار الله؛ لكونه عربياً، ولذا كان التنزيل فى ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ والوحى فى ﴿أَوْحَيْنَا﴾ والجعل فى ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وضرب المثل فى ﴿ضَرَبْنَا﴾ وهى كل مدارج مؤدية لمعنى عظيم، هو نزوله على قلبه ﷺ، ودعوتهم للقيام بما فيه والتعقل والاهتداء والعلم والتقوى.

كما تبرز ملاحظات أخرى بشأن التركيب اللغوى للآيات، نقدمها فيما يلى:

عُبر عن القرآن الكريم بأنه﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فى موضعين و﴿لِسَانٍ عَرَبِيًا﴾

فى موضع واحد و﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ فى ستة مواضع، و ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ فى موضع واحد و﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فى موضع واحد. مع ملاحظة اتحاد البنية القرآنية فى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ مع اختلاف المواضع.

ويلاحظ الربط بين اللسان العربى وبين الإبانة فلم يقل الحق سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ فقط ولكنه أردف بقوله ﴿مُبِينٍ﴾.

تأكيداً لجلائه ووضوحه وسلامته.

كما نلاحظ أن ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ جاءت هكذا فى خمسة مواضع، وفى الموضع السادس أضيف وصف جديد ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ فى سورة الزمر، وهذا يتسق مع وصفه بأنه (مبين) فى الموضعين السابقين.

وُصفت آياته بأنها مفصلة واضحة لا لبس فيها فى قوله تعالى: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ متقدماً على قوله ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ فى سورة فصلت.

كما وُصف بأنه ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لما تقدم من الكتب متقدماً على قوله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ فى سورة الأحقاف.

يلاحظ أن كلمة (عربياً) وردت ثمان مرات؛ كلها منصوبة فى ستة مواضع ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا﴾ وفى موضع واحد ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وفى موضع واحد ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

وهناك عدة آراء فى إعراب (قرآناً - لساناً - حكماً) والذى نرتضيه منها أنها تُعرب حالاً، و (عربياً) صفة. وهذا ما ارتضاه القرطبى والألوسى وغيرهما.

٣- ختام الآيات الكريمة وعلاقته بمضمونها:

فى كل مرة يتأكد الإعجاز القرآنى، على اختلاف أوجهه، وهنا نرصد ملمحاً إعجازياً فريداً فى ختام الآيات؛ التى جاء فيها نعت القرآن الكريم بالعربية فى المواضع المذكورة.

حيث جاء ختام الآيات متسقاً مع محتواها ومضامينها، وذلك إجابة على سؤال مبهم فى الذهن: ولماذا أُنزل القرآن عربياً؟ نجد الرد فى الآيات نفسها. . حيث المحصلة المرادة من ذلك وهى على النحو التالى: التعقل - التقوى - العلم - الإنذار. وهذا ما نوضحه فيما يلى:

جاء قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ فى عجز آيتى يوسف والزخرف وفيها وصف القرآن بقوله تعالى: ﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ أى لكى يتحقق لكم التعقل والتدبر والتبصر والتفكر والفهم والتفقه والتأمل والاعتبار بما فيه.

جاء قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ فى عجز آيتى طه والزمر وفيهما وصف القرآن كذلك بقوله تعالى:﴿**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ أى لكى يتحقق لكم الكمال النفسى بالتقوى والخشية وترك المعاصى.

جاء قوله تعالى: ﴿**لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ فى عجز آية فصلت ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ أى أنه نزل بهذه الكيفية ليعرف هذا البيان وهذا الوضوح العلماء الراسخون.

وردت صيغتان تفيدان الإنذار فى عجز آياتى الشورى والأحقاف وذلك فى قوله سبحانه: ﴿**لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ**﴾ و ﴿**لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ**﴾.

ووردت صيغة واحدة تفيد الإنذار متقدمة على قوله تعالى: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ فى موضع الشعراء فى قوله سبحانه ﴿**لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ والمراد أنه نزل بصورته هذه ليتحقق الإنذار لهم، والزجر لهم، لأهل مكة ومن حولها، وللذين كفروا وظلموا، كما أنه بشرى للمحسنين الصالحين. .

٤- سياق الآيات الكريمة:

يلاحظ أن وصف القرآن واللسان بالعربية **جاء فى صور ثلاث:**

أ- إما استكمالاً لصفات سابقة، حيث يمتد السياق، وذلك مثل مواضع

سورة النحل، حيث إن قوله تعالى ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ جاء فى سياق حديث الحق سبحانه عن آداب تلاوة القرآن الكريم ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والشئ نفسه فى سورة فصلت حيث جاء قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فى سياق الحديث عن القرآن الكريم كذلك فى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ وكذا فى الشعراء حيث يستمر السياق فى وصف آيات الذكر الحكيم بداية من قوله ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يستمر السياق فى قوله تعالى ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ كما يمتد بعد ذلك فى وصف طريقة تلقيهم للقرآن الكريم، وصدودهم عنه.

فالسياق والوصف مستمران ممتدان فى المواضع الثلاثة السابقة، وكلها مرتبطة بوصف القرآن الكريم، ثم يرد وصفه بكونه عربياً كأحد أوصافه المتميزة.

ب- كما يأتى توضيحاً لوصف سابق، فى سياق الحديث عن القرآن الكريم وذلك فى مواضع افتتاح سورة يوسف ﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ وسورة فصلت ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ وسورة الزخرف ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

جـ- السياق يستقل بالآيات التى تحدثت عن كون القرآن عربياً فى مواضع طه ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ والشورى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ والأحقاف ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ إذ يلاحظ أن السياق لا يمتد قبلها أو بعدها فى وصف آيات الذكر الحكيم، وإنما نجده مستقلاً فى معناه ولفظه.

٥ - القرآن العربى:

ونخلص إلى سؤال مهم: هل ثَمَّ حاجة لإبراز عربية القرآن وعروبة لسانه وهذا مما لا يخفى على أحد؟

يؤكد الحق سبحانه على حقيقة كونه نزل بلسان عربى، قرآناً عربياً وذلك لما يلى:

بلغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربى البليغ؛ من حصول كيفيات فى نظمه مقدرة معانى دقيقة، كما أن ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف فى نظم الكلام، لم يكن معهوداً فى أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة، وهنا نلمح أن إعجازه من هاتين الناحيتين - على تعداد نواحى إعجازه - متوجه إلى العرب خاصة، إذا هو معجز لفصائحهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه من معارضته هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو بعد ذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر، الذى بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغاً، لايستطيع إنكاره لمعاصريه، بتواتر الأخبار ولمن جاء بعدهم بشواهد التاريخ.

فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلى، وإعجازه لغيرهم دليل إجمالى.

ثم قد يشارك خاصة العرب فى إدراك إعجازه كل مَنْ تعلم لغتهم، ومارس بليغ كلامهم وآدابهم(*).

وإذا كان القرآن الكريم قد أعجز العرب بسحر بيانه فقد أعجز الناس أجمعين بمعانيه وشرائعه وعلومه ومبانيه فضلاً عن لغته وبيانه.

والقرآن وحاله كذلك من بلاغة وروعة قول ونغمة بيان وحسن نظم ودقة

(*) أحمد جمال العمرى: مفهوم الإعجاز القرآنى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤ ، ص ٢٣١ .

أسلوب كان طبيعياً أن يتحدى العرب، والذين هم قوم بلاغة وفصاحة وذلك ببلاغة القرآن التى تحدتهم وأعجزتهم، فقد نزل على قلب النبى الأمى ﷺ؛ فطرق أسماع قريش طرقاً شديداً، وهز عرشهم الأدبى والفكرى هزاً عنيفاً، وقلب موازينهم البيانية والبلاغية، وخاطب عقولهم وقلوبهم بأرقى ما يمكن أن يخاطب به بشر ولذا تباينت ردودهم واختلفت آراؤهم نحوه؛ ما بين قولهم إن الرسول الكريم ساحر أو شاعر أو أن القرآن الكريم أساطير الأولين.

ولذا كان طبيعياً أن يذكرهم القرآن الكريم أنه نزل بلغتهم وبلسانهم، وأنه ليس أعجمياً؛ فيستعصى عليهم فهمه، وليس به عوج؛ فيزيغون عن متابعته، أو يخفى عليهم إدراك فحواه... وأن نزوله كذلك هو حجة عليهم، ولا عذر لهم عند الله.. لأنه:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوءَ الشَمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سقَمِ

* * *


المبحث الثالث
اللغة العربية
فى الحديث
النبوى الشريف



المبحث الثالث: اللغة العربية فى الحديث النبوى الشريف ونماذج للغته صلى الله عليه وسلم

نعرض هنا لبعض ماقاله الرسول الكريم ﷺ بشأن اللغة عامة، وبشأن اللغة العربية خاصة، وذلك من خلال رصدنا لبعض أقواله ﷺ، فى ذكر أول مَنْ تكلم اللغة العربية، وفى كون العربية لغة أهل الجنة، ثم نعرض لإيحاء اللغة إليه ﷺ، وتأكيد فصاحته ومصادرها من خلال أقواله ﷺ، ويلى ذلك رصدنا لدعوته ﷺ للغة العربية، ونقدم سمات لغته ﷺ، ثم نعرض لنماذج من قوة لغته ﷺ، وهذا ما نفصله فيما يلى.

أولاً: أول من تكلم العربية:

قال محمد بن سلام الجمحى فى كتاب «طبقات الشعراء»: قال يونس ابن حبيب: أولُ من تكلم بالعربية إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام، ثم قال محمد بن سلام: أخبرنى مِسْمعَ بن عبدالملك أنه سمع محمد بن على يقول: قال ابن سلام: **لا أدرى رَفَعَه أم لا، وأظنه قد رفعه - أولُ من تكلم بالعربية ونسى لسان أبيه إسماعيل عليه السلام.** (طبقات الشعراء: ٩، ١٠).

وأخرج الحاكم فى المستدرك، وصححه، والبيهقى فى شعب الإيمان من طريق سفيان الثورى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر : أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال: **أُلهِمَ إسماعيلُ هذا اللسان العربىَّ إلهاماً.**

وقال الشيرازى فى كتاب الألقاب: أخبرنا أحمد بن سعيد المعدانى: أنبأنا محمد بن أحمد بن إسحاق الماسى، حدثنا محمد بن جابر، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن السكيت قال: حدثنى الأثرم عن أبى عبيدة، حدثنا مسمع بن عبد الملك، عن محمد بن على بن الحسين، عن آبائه، عن النبى ﷺ قال: «**أول مَنْ فتَق لسانُه بالعربية المتينة إسماعيلُ عليه السلام، وهو ابن أربع عشرة سنة**»

فقال له يونس: صدقت يا أبا سيار؛ وهكذا حدثنى به أبو جزىّ. هذه طريقة موصولة للحديث السابق من طريق الجُمَحِى. (المزهر ١/ ٣٤)

وإلهام إسماعيل اللغة العربية هو إعلاء لشأنها، وتفضيل لها ونجد الزمخشرى يفتتح كتابه (الفائق فى غريب الحديث) بتأكيد الحقيقة السابقة بقوله «الحمد لله الذى فتق لسان الذبيح -إسماعيل- بالعربية البينة، والخطاب الفصيح، وتولاه بأثرة التقدم فى النطق بالعربية التى هى أفصح اللغات.

(الفائق ١ / ١١)

ويعقب أحد العلماء المعاصرين على ذلك بقوله: «ولا يخفى أن فتق لسان نبى من الأنبياء بلغة ما، وإلهامه إياها فيه من التفضيل للغة بقدر ما للنبى من الفضل على غير النبى، بالإضافة إلى أنه يؤخذ منه أن تلك اللغة من عند الله»[١].

يؤخذ من الأحاديث المتقدمة من العرض السالف مايلى:

١- أن إسماعيل عليه السلام هو أول من فتق العربية المبينة، وأن العربية منسوبة إليه.

٢- أن حديث إسماعيل عليه السلام بها كان إلهاماً من الله تعالى وإرادة واختياراً وحكماً. . . وكان كلامه بها تأكيداً لذلك.

٣- أن إلهام إسماعيل بها هو إعلاء لشأنها، وتفضيل لها وتأكيد للعلم الأزلى لله سبحانه فى إنزال القرآن الكريم على نبى كريم من نسل إسماعيل عليه السلام باللغة نفسها على نحو ما أوضحنا. .

٤- وصف الرسولُ الكريم اللغةَ التى علمها إسماعيل فى رواية بأنها **«أول من فتق لسانه بالعربية المبينة»**[٢]. . ووصفت كذلك فى حديث آخر بأنها **«أول**

(١) محمد حسن جبل: خصائص اللغة العربية (تفصيل، وتحقيق)، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٧، ص٢٨.

(٢) كنز العمال: ١١ / ٤٩٠ .

من فتق لسانه بالعربية المتينة»[1]. وكلا الوصفين الإبانة (الإيضاح) والمتانة (القوة) مما قرره علماء اللغة بعد ذلك قديمهم وحديثهم ومن يعرض لخصائص اللغة العربية يجد إبانتها و متانتها؛ مما نطقت فى آى الذكر الحكيم. .

٥- يعضد ما تقدم قول **ابن هشام** فى (السيرة النبوية): «فالعرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان. وبعض أهل اليمن، يقول: قحطان من ولد إسماعيل ويقولون: إسماعيل أبو العرب كلها»[2].

ثانياً: العربية لغة أهل الجنة:

أخرج ابن عَساكر فى التاريخ، عن ابن عباس، أن آدم عليه السلام **كان لغتُه فى الجنة العربية**، فلما عَصَى سلَبه اللهُ العربيةَ فتكلم بالسريانية فلما تاب ردَّ الله عليه العربية.

قال عبد الملك بن حبيب: كان اللسانُ الأولُ الذى نزل به آدم من الجنة **عربياً**، إلى أن بَعُد العهد وطال، حُرِّف وصار سُرْيانياً، وهو منسوب إلى أرض سُورَى(*) أو سوريانه، وهى أرضُ الجزيرة، بها كان عليه السلام وقومه قبل الغَرَق[3].

وثم حديث يروى عن ابن عباس يقول فيه ﷺ **«أحبوا العرب لثلاث**: لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى»[4].

ومهما قيل من روايات فى علو منزلة اللغة العربية، وكونها لسان أهل الجنة فإن المقطوع به أن نزول القرآن الكريم، وهو خاتم الكتب السماوية بهذا اللسان

---

(١) المزهر: ١ / ٣٤.

(٢) ابن هشام: ١ / ٧ .

(*) فى القاموس: سورى كطوبى، موضع بالعراق، وهو من بلد السريانيين.

(٣) المزهر ١ /٣.

(٤) انظر الجامع الكبير: ١ / ٢٣ . (والحديث حوله جدل فى صحته، حيث رفضه الذهبى وابن الجوزى).

العربى المبين المعجز هو منقبة لاتدانيها منقبة فى مجال اللغات، وهى كفيلة بنسبة كل فضل إلى هذه اللغة الشريفة (كما وصفها ابن جنى فى الخصائص).

ثالثاً: إيحاء اللغة إليه ﷺ وتأكيد فصاحته:

جاء فى الجامع الكبير للسيوطى أن ابن عساكر أخرج عن أنس أن أصحاب النبى ﷺ قالوا: يارسول الله مالك أفصحنا لساناً وأبيننا بياناً؟ فقال ﷺ: «**إن العربية اندرست فجاءنى بها جبريل غضة طرية كما شق على لسان إسماعيل عليه السلام**»[1].

وروى عنه ﷺ أنه قال: «**جاءنى جبريل فلقننى لغة إسماعيل**»[2] (وفق رواية الديلمى عن ابن عمر رضى الله عنه).

وقال أبو أحمد الغطريف فى (كشف الظنون): حدثنا أبوبكر بن محمد ابن أبى شيبة ببغداد: أخبرنا أبو الفضل حاتم بن الليث الجوهرى، حدثنا حماد بن أبى حمزة البشكرى، حدثنا على بن الحسين بن واقد، نبأنا أبى عن عبد الله بن بُريَدة عن أبيه، عن عمر أظْهرِنا؟ قال: «**كانت لغة إسماعيل قد دَرَست فجاء بها جبريل عليه السلام فحفَّظَنِيها، فحفظتها**» أخرجه ابن عساكر فى تاريخه.

وأخرج البيهقى فى شعب الإيمان من طريق يونس محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمى، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ فى يوم دَجْن[3]: «كيف ترون بواسَقها[4]؟ قالوا: ما أحسَنها ،وأشدَّ تراكمها! قال: كيف ترون قواعدَها؟ قالوا: ما أحسَنها وأشدَّ تمكنها! قال: كيف ترون جَوْنَها. قالوا: ما أَحسنه وأشدَّ سواده. قال: كيف ترون رَحاَهَا استَدارتْ؟ قالوا: نعم ما

(١) الجامع الكبير ١ / ٢٠٧، وكنز العمال ١١ / ٤٩٠ .

(٢) كنز العمال ١١ / ٤٩٠ .

(٣) الدجن : إلباس الغيم السماء.

(٤) الباسقة: السحابة البيضاء الصافية.

أحسنها وأشدَّ استدارتها! قال: كيف ترون بَرْقهَا؟ أخفيًا أم وميضاً أم يشق شقا؟ قالوا: بل يشق شقًّا. فقال: الحياءُ(١) فقال رجل: يارسول الله؛ ما أفصحك! ما رأينا الذى هو أعرب(٢) منك. قال: **حقٌ لى، فإنما أُنْزِل القرآنُ علىّ بلسانٍ عربى مبين».**

وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى رافع قال: قال رسول الله ﷺ: «مُثِّلت لى أمتى فى الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما عُلِم آدمُ الأسماء كلَّها».

يؤخذ من الأحاديث السابقة مايلى:

١ - أنه ﷺ وقد نزل القرآن الكريم على قلبه بلسان عربى مبين، فإنه بالضرورة قد وعى هذه اللغة وأسرارها، فإذا **كان الرسول الكريم أمياً** -كما أكد القرآن الكريم(*) - فإنا لانجد كثير صعوبة فى القول بأنه علمها بالوحى -عليه السلام-.

٢- القول بوحى اللغة إليه ﷺ هو تأكيد لوعيه باللغة، وإدراكه لأسرارها، ولأهمية إحساسه بالنص القرآنى من حيث الدلالة ولمعايشته له ﷺ، ولإدراك تعبيراته اللطيفة، ولإيضاح بعض المعانى والأسرار لبعض الآيات الكريمة، كما هو واضح فى كتب التفسير.

٣- يستدل من الأحاديث أن إحياء ماكان من اللغة بعد إسماعيل عليه السلام، وأن إيحائها إليه ﷺ رعاية من الله القدير، وإعلاء لها، وتفضيل لها عما عداها من اللغات.

---

(١) الحيا: مقصور الخصب والمطر، ويمد.

(٢) عرب بالضم إذا لم يلحن، وعرب لسانه عروبة إذا كان عربياً فصيحاً.

(*) وذلك فى قوله جل شأنه ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. وأميته ﷺ دواعيها وحكمتها وأهميتها مما لا يخفى على ذى لب.

٤- فصاحته ﷺ مستمدة من كتاب الله تعالى ومن الوحى، وهذا المعنى مأخوذ من قوله ﷺ -عندما سُئل عن عروبته واستقامة لغته وفصاحته- **«حَقٌّ لى، فإنما أُنزل القرآنُ علىّ بلِسَانٍ عَربِيٍ مبين»** كما أن الوحى -عليه السلام- كان عوناً له ﷺ على حفظها وتعلمها ودراستها، وهذا المعنى مأخوذ من قوله ﷺ: **« فَجَاءَ بِهَا جِبْرِيل عَلَيْه السلام فَحَفَظَنِيها فَحَفِظْتُها »**.

رابعاً: الرسول الكريم ﷺ ودعوته للعربية:

ثَمَّ توجيهات صريحة منه ﷺ ومن كبار صحابته لدراسة العربية، وفقه علومها، وهذا ما نلمسه فى قوله ﷺ **«أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه»**[1] مما يحمل فى معانيه: القراءة بالضبط وبالحركات الصحيحة كما يستدل منه -والله أعلى وأعلم- على السعى لفهم معانيه، والبحث عن تفسير غريبه.

ولعلك تجد توجيهاً آخر جلياً فى إطار أدبه النبوى الكريم صلوات الله عليه وسلامه، عندما سمع رجلاً يلحن فقال: «**أرشدوا أخاكم**» وأُضيف فى رواية أخرى **(فإنه قد ضل)** أو **(فقد ضل)**.

ولايخفى عليه - إن صحت الإضافة السابقة- أن الضلال هو خروج عن الحق، وأن خطأه فى اللغة بالتالى هو ضلال، يستوجب معه إرشاد الضال، وذلك بالتصويب له، وهدايته للصواب اللغوى...

وينبغى أن نؤكد هنا على **التوجيه العصرى للمسلم هذه الأيام من حديثه المتقدم ﷺ والذى نجد فيه دعوة قوية لعدم اللحن وعدم الخطأ فى اللغة، والعمل على التحدث بها والالتزام بها؛ تجنباً للضلال الذى أشير إليه..**

وليس أدل على أهمية **الالتزام بالعربية فى التحدث،** وعلى مراعاة قواعد اللغة العربية فى أساليب الخطاب المختلفة، من حديث مروٍ عنه ﷺ؛ مشيراً لأهمية مراعاة قواعد اللغة فى أمور العبادة وذلك فى قوله **«إنّ اللهَ لايَسْمَعُ**

(١) أخرجه البيهقى وغيره (الإتقان/ ١٧٥).

دُعَاءً مَلحُونًا» ولايخفى عليك أن الدعاء مخ العبادة، أو هو العبادة كما أشارت الأحاديث النبوية لذلك.

وهذا الحديث -إن صح- يؤكد أمراً خطيراً جداً فى قبول الدعاء -من المسلم المثقف الدارس- بشرط أن يخلو دعاؤه من الأخطاء اللغوية، ومن اللحن فى لغة الدعاء والطلب الذى يُفضى إلى إجابة وقبول من الله سبحانه وتعالى؛ فى ضوء استقامة لغته وخلوه من اللحن.

وهو ﷺ وقد أوتى **(جوامع الكلم)**(*) كان قدوة عظيمة فى مجال التحدث بالفصحى من العربية، وبمعرفة لغات العرب؛ حتى ليخاطب القبائل بلهجاتها، وبمعرفته للغتها ولغرائبها، حتى يقول له أصحابه **(مَا رَأَيْنَا الَّذِى هُوَ أَفْصَحُ مِنْك)**.

وتأكيداً لفصاحته ﷺ نجده يقول عن نفسه ﷺ **«أَنا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بالضَّادِ بَيْدَ أَنِّى مِنْ قُرَيْش وأنِّي نَشَأْتُ فِي بَنِي سَعْد بَنِي بَكْر»**[1].

فقد كان ﷺ قدوة فى التمسك بمعالى اللغة، وحجة لاعتداد المعرفة اللغوية من عناصر الكمال الإنسانى «فقد كان قوله جزلاً وفصلاً، وكان أسلوبه راقياً فائقاً فى البلاغة والتمييز كما شهد بذلك أصحابه رضوان الله عليهم من تأكيد فصاحته ﷺ، ونسوق له ﷺ حديثاً يؤكد أن تعلم العربية وحديثها يعد فخراً لكل من تعلمها حيث يقول «يا أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب واحد وإن الدين واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى».

(*) أخبر رسول الله ﷺ عن نفسه بقوله «أُوتيّتُ جوامع الكلم» (ارجع إلى تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣، ٤) ويتأكد كونه كذلك ﷺ من أقواله الموجزة الجامعة مثل «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس» وفى قوله لمن قال أوصنى فقال له «لاتغضب» وفى قوله «دع مايريبك إلى مالا يريبك» وقوله «إذا لم تستح فاصنع ماشئت»، وقوله لمن استكثر شرائع الإسلام «لايزال لسانك رطباً بذكر الله» وقوله لمن سأله قولاً فصلاً فى الإسلام «قل آمنت بالله ثم استقم».

(١) ارجع للنهاية فى غريب الحديث جـ٣ ، باب الفاء مع الصاد (فصح).

وإن صح هذا الحديث يتأكد لنا **أهمية اللسان العربى وفضله وتميزه، وضرورة الالتزام به، والحفاظ عليه.**

وندع الجاحظ يحدثنا عن سمات لغته ﷺ فيقول: «كلام قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، ونزه عن التكلف كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾ [ص:٨٦] .

.... كيف وقد عاب التشدق، وجانب أصحاب التعقير، واستعمل المبسوط فى موضع البسط، والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى؛ فلم ينطق إلا عن ميراث حكمه، ولم يتكلم إلا بكلام حُف بالعصمة، وشُيد بالتأييد، ويُسر بالتوفيق، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبولِ وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولازلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلم القصار، ويلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولايحتج إلا بالصدق ولايطلب الفلج -الفوز- إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولايهمز ولايلمز، ولايبطىء ولا يعجل، ولا يسهب ولايحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى من كلامه ﷺ كثيراً»[1].

---

(١) البيان والتبيين (١٨/٢ - ١٩).

نماذج لقوة لغته صلى الله عليه وسلم:

قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: **«ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ».**

لذا نجد من أقواله ﷺ كلاماً لم يسبقه إليه عربى، ولم يدع لأحد ولا أدعاه أحد، مما صار مستعملاً، ومثلاً سائراً، ومن ذلك قوله ﷺ: «ياخيلَ الله اركَبى» وقوله: «ماتَ حتْفَ أنفه».

وقوله: «لاتنتطح فيه عَنْزَان»، وقوله: «الآنَ حَمِىَ الوطَيس»، وقوله: «لايُلسع المؤمن من جُحرٍ مرتين».

وقوله: «هُدنة على دَخَنٍ، وجماعةٌ على أقذاءٍ» - وهو يُضرب لمن يضمر أذىً، ويظهر صفاءً..

ومن ذلك كلامه ﷺ حين ذكر الأنصار فقال: «أمَا والله عَلمتُكم إلا لَتَقلون عند الطمع، وتكثُرون عند الفزَع» وقوله: «الناس كلُّهم سواء كأسنان المُشط» وقوله: «المرءُ كثيرٌ بإخوانه» وقوله: «لاخَيْرَ فى صُحبة من لايرى لك مثلَ ماترى له».

وقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويَسعَى بذمتهم أدناهم، ويردُ عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على مَنْ سواهم».

وقوله ﷺ: «اليدُ العليا خيرٌ من اليد السفلى وابدأ بمَنْ تعول». وقوله: «لاتَجْن يمينُك على شمالك»، وذكَر الخيل فقال: «بطونُها كنز، وظُهورُها حرْزٌ» وقوله: «خيرُ المالِ سِكة مأجورة، وفرسٌ مأمورة» أى النخيل الملقحة، والخيل كثير النتاج والنسل.

وقوله عن الخيل: «الخيلُ معقودٌ فى نواصيها الخَيرُ»، وقوله: «نهيتكم عن عُقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعٍ وهات» وقوله: «ماقَلّ وكَفَى خيرٌ مما كثُرَ وألهى»، وقوله: «لَن يَهلك امرؤٌ بَعدَ مَشُورة»، وقوله: «ما أَمْلَقَ تَاجرٌ صَدُوقٌ»، وقوله: «رَحِم اللهُ عَبْداً قال خيرا فَغَنِم أَوْسكت فسَلِم».

وقيل له: أيُّ الأصحابِ أفضل؟ قال: «الذى إذا ذُكِرْتَ أعانَك، وإذا نسِيت ذَكَرك».

وقيل له: «أىُّ الناسِ شرٌ؟» فقال ﷺ: «العَلماءُ إذَا فَسدوا».

ويحار المرء فيما يختار من أقواله ﷺ؛ لأنها كلها نور، وكلها اتسم بقوة اللغة، وجزالة اللفظة، وحسن الإبانة، وقلة الحروف، وكثرة المعانى.

ولسنا نعجب من **استقامة لغته ﷺ**، فقد استمدها من نقاء فطرته، وحسن سليقته، وجودة قريحته، ولن يكون ذلك كله بشىء بجوار كتاب الله تعالى؛ الذى أكسبه بياناً وفصاحة وإيجازاً وقوة تعبير وحسن منطق ورجاحة وصحة وجودة لسان وحسن بيان.

وإنك لتجد امتداداً لذلك لدى أصحابه رضوان الله عنهم ولدى التابعين وتابعيهم؛ فقد اتسم كلامهم بالقوة والإيجاز فضلاً عن الصحة والإجادة، ووددنا لو أفردنا لها معالجة مستقلة هنا، لكن المقام لايسمح بذلك، وهذا أمر يحتاج لدراسة مستقبلية إن شاء الله نبحث من خلالها عن مدى التواصل اللغوى والتأثير اللفظى لدى الصحابة والتابعين بأقواله ﷺ، وذلك من خلال رصد أقوالهم.. والله المستعان ومنه العون والهداية..

* * *


المبحث الرابع
فضل اللغة
العربية لدى
الأئمة والعلماء

المبحث الرابع: فضل اللغة العربية لدى الأئمة والعلماء

نعرض فى هذا الجزء **لسياحة فى كتب التراث، وتطويف بما ذكره الأئمة والعلماء فى فضل اللغة العربية،** وذلك من خلال التنقل فى مساحة كبيرة من تاريخنا الزمنى والعلمى؛ حيث نتناول واحداً من كل فترة زمنية، أو من كل مدرسة فكرية، أو من كل طائفة، أو من كل عصر؛ فالفاروق عمر يمثل عصر الخلفاء، والإمام الشافعى يمثل مدرسة الأئمة الأربعة، والجاحظ باعتباره أديباً، وابن جنى باعتباره لغوياً.. وهكذا؛ مما نسوقه من أقوالهم؛ ثم نعقب على رأى كل عالم أو على رأى مجموعة من العلماء، وهذا ما نفصله فيما يلى..

أولاً: عمر بن الخطاب وفضل تعلم اللغة العربية:

لعل الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أكثر الصحابة حثاً على تعلم العربية والالتزام بها، حيث يرى أن تعلم العربية يُثبت القلوب، ويزيد المروءة حيث يقول: « **تَعَلَّمُوا العَرَبِيَّةِ فإنّها تُثَبِّتُ القُلُوبَ، وَتَزِيّد فى المُرُوءة**».

ولايخفى أن نظرته رضى الله عنه إلى اللغة العربية -لا على أنها لغة فحسب- ولكن على أساس تشريفى وقيمى وأخلاقى، وفى ضوء أنها لغة القرآن الكريم لا نعجب من رأى الفاروق عمر رضى الله عنه.

وتثبيت اللغة العربية للقلوب آت من الصلة الطبيعية العضوية بينها وبين هداية الله تعالى فى قرآنه الحكيم؛ فكلما فقه المرء علم العربية، كان أقرب لفهم آيات الله تعالى وأوعى بمعانيها، وأذكر بأحكامها وأوامرها، وأزجر عن نواهيها، وأدخل فى دائرة نورها، وبذا يكون أنقى قلباً، وأحفظ سريرة، وأثبت فؤاداً.

وأما زيادتها للمروءة فهذا يتأتى من إكسابها وقاراً والتزاماً ورشداً للمتعلم لها، والعالم بها، والمتحدث بالفصيح منها، والمتمرس بنطقها فى أحاديثه

اليومية.. ونجد أن الالتزام بها يفرض على صاحبها التزاماً دينياً، وقواماً خلقياً، وهداية واستقامة كما نجد استجابة وتفاعلاً من المتلقين للكلام الجاد الملتزم بالفصحى لأنه سيزن الكلام قبل النطق به؛ مُجرياً الكلام على قواعد اللغة؛ فإذا استقام المعنى فى داخله نطق به(*)، وعندئذ فإنه بالأحرى سيقِل كلامُه ويكثر صمته، ويزداد حبسه للسانه إلا عن أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى.. أى يحفظ لسانه، وهذه منزلة أخرى عظيمة، تحدثت عنها كتب الآداب الإسلامية، وكتب الأخلاقيات الإسلامية تحت عنوان (آفاق اللسان) و (فضل حفظ اللسان) و (أضرار الكلام) و (فصول الكلام)، ونوصى القارىء الكريم بالرجوع إليها.

ومادمنا بصدد حديثنا عن دعوة **عمر بن الخطاب رضى الله عنه** لتعلم العربية، وحرصه عليها وعلى كتابتها بصورة صحيحة، نذكر عنه أنه عندما كتب إليه كاتب أبى موسى الأشعرى فى رسالة **«من أبو موسى»** فكتب عمر إلى أبى موسى يقول له **«قَنِعْ كاتِبَك سَوْطًا وأخِرِ عطاءَه سنةً»** (ارجع للنحويين/ ٦). وقد أصدر أمراً أن (لايقرىء القرآن إلا عالم باللغة).

ثانياً: الإمام الشافعى وأوجه تفضيل اللغة العربية:

أما الإمام محمد بن إدريس الشافعى -رحمه الله- فيقول فى مؤلفه القيم **(الرسالة)**:

(*) نذكر هنا طرفة عجيبة فى هذا الصدد أوردها ابن الجوزى فى كتابة (أخبار الحمقى والمغفلين) نؤكد من خلالها على أن الكلام يكون فى عقل صاحبه قبل التلفظ به؛ يُصلحه ويُقومه ثم يتحدث فى موضعه المناسب؛ لايتأخر عن ذلك حتى لايكون مثل هذا الأحمق الذى ذكره ابن الجوزى: «كان بسجستان رجل يتعاطى النحو وكان له ابن فقال لابنه: إذا أردت أن تتكلمَ بشىء فاعرضه على عقلك، وفكر فيه بجهدك، حتى تُقومَه ثم أخرجِ الكلمة مُقومة، فبينما هما جالسان فى بعض الأيام فى الشتاء، والنار تتقد، وقعت شرارةٌ فى جبة خز كانت على الأب وهو غافل والابن يراه فسكت ساعةً يفكر، ثم قال يا أبت أريد أن أقول شيئاً فتأذن لى فيه؟ قال أبوه: إنْ حقاً فتكلم، قال: أراه حقاً، فقال إنى أرى شيئاً أحمر. قال: وما هو، قال: شرارة وقعت فى جبتك، فنظر الأب إلى جبته وقد احترق منها قطعة، فقال للابن لمّ لم تُعلمنى سريعاً؟ قال: فكرت فيه كما أمرتنى، ثم قومت الكلام، وتكلمت فيه، فحلف أبوه بالطلاق أن لايتكلم بالنحو أبداً. (ابن الجوزى/ ١٨٠).

«فإذا كانت الألسنةُ مختلفة بما لايفهمه بعضهم عن بعض، فلابد أن يكون بعضهم تبعاً لبعض، وأن يكون الفضل فى اللسان من لسانه لسان النبى، ولايجوز -والله أعلم- أن يكون أهل لسانه أتباعاً لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد».

وقد أشرنا لقوله فى **(أوائل الرسالة)**: لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولانعلم أن يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى».

ويُرجع الشافعى تفضيل اللغة العربية إلى أن الله جعل بها ختم النبوة، وأنزل بها آخر كتبه.

ويُستدل من كلامه -رحمه الله- على بعض أوجه تفضيل اللغة العربية فى كونها لسان النبى ﷺ، وأن غيرها من اللغات تابع لها، فهى بالفضل والميزة الخيرية وكفاها من الفضل أنها لغة القرآنِ الكريم.

كما رصد -رحمه الله- بعض خصائصها، المتمثلة فى كونها أوسع اللغات وأكثرها ثراءً، وأنه لايحيط بها علماً إلا أنبياء الله.

ويقول الشافعى أيضاً «إن الله فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربى بالتتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له».

ويقول فقهاء الحنفية «للعربية فضل على سائر الألسن، وهو لسان أهل الجنة مَنْ تعلمها أو علمها غيره فهو مأجور».

وكلما ازداد الإنسان معرفة باللغة العربية كلما كان أقدر على فهم الإسلام، ولذلك خُوطبت بها الأمم كما قال الشافعى رحمه الله.

وفى إطار حديثنا عن الآراء المتميزة للشافعى بشأن اللغة العربية نجد أن أستاذه الإمام مالك بن أنس -إمام دار الهجرة- (رحمه الله) يشدد القول على أهمية اللغة العربية وضرورتها لكل عالم ومتعلم، حيث يقول **«لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً».**

(ارجع للاتقان للسيوطى ٢/ ١٧٩).

ثالثاً: الجاحظ، ومناط فضلها، وسر تفوقها:

فى كتابه الجامع لفنون البلاغة والفصاحة **(البيان والتبيين)** يقول أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ فى شأن لغة إسماعيل عليه السلام:

« . . . ولابد من أن نذكر فيه شأن إسماعيل عليه السلام، وانقلاب لغته بعد أربع عشرة سنة، وكيف نسى لغتَه التى ربى فيها، وجرى على أعرافها، وكيف لفظ جميع حاجاته بالعربية على غير تلقين ولا ترتيب وحتى لم تدخله عجمة ولا لكنة ولا حبسة، ولا تعلق بلسانه شىء من تلك العادة. . » (١/ ٣٨٣).

ثم فَصَّل ذلك فى باب مستقل «القول فى إنطاق الله عز وجل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام بالعربية المبينة على غير التلقين والتمرين، وعلى غير التدريب والتدريج، وكيف صار عربياً أعجمى الأبوين. . .» (٣/ ٢٩١).

ثم يقول **(فى إلهام إسماعيل العربية)**: «فيجوز أن يكون الله تبارك وتعالى حين حوّل إسماعيل عربياً أن يكون كما حول طبع لسانه إلى لسانهم، وباعده عن لسان العجم، وأن يكون أيضاً حول سائر غرائزه، وسلخ سائر طبائعه؛ فنقلها كيف أحب، وركبها كيف شاء ثم فضله بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودة، واللسان البين، بما لم يخصهم به، فكذلك يخصه من تلك الأخلاق، وتلك الأشكال بما يفوقهم ويروقهم، فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب، وبما نقل طباعه ونقل إليه من طبائعهم، وبالزيادة التى أكرمه الله بها أشرف شرفاً وأكرم كرماً» (٣/ ٢٩٢).

وقال رحمه الله فى موضع آخر، مشيداً بالعربية والعرب:

«فالعرب أنطق، ولغتها أوسع، ولفظها أول، وأقسام تأليف كلاماً أكثر، والأمثال التى ضربت فيها أجود وأسير». (٢/ ٣٨٤).

كما يشير إلى تميز الجانب البلاغى فى اللغة العربية؛ بقوله: «والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت كل لسان».

(٤/ ٥٥ - ٥٦).

تعقيب على ماذكره الجاحظ:

لأن الجاحظ من أبرز الأدباء المبدعين والكتاب المجيدين فى تاريخنا الأدبى فإنك تلمس فى آرائه جانب الدفاع عن العربية، وحبها، والانتماء لها وذكر فضلها وأفضالها، كما نلحظ جانب التعصب (بالمفهوم الإيجابى الخَيِّر) للغة العربية فى كتاباته من خلال الرد على الشعوبية..

ولضيق المقام فلم نشأ أن نورد المزيد من آرائه فى ذلك، لكن حسبنا أن نشير إلى مايلى:

١- يؤكد الجاحظ على الجانب التأصيلى التاريخى من خلال إلهام إسماعيل عليه السلام اللغة العربية، وتحوله إليها بعد أربع عشرة سنة، وهذا يتأتى بتوفيق الله تعالى وإرادته واختياره، خاصة أن هذا التحول لم يكن بالتمرين أو التلقين أو التدريب.

٢-كما لم تدخل لسان إسماعيل عليه السلام لكنة.. ولا حبسة، وزيد على ذلك أن تحوله للغة العربية صاحبه تحول فى الطباع والغرائز -وفق رأى الجاحظ- ومزج ذلك كله فى إطار أخلاق محمودة ولسان بيّن واضح، وكان هذا كله تشريفاً من الله وتكريماً.

٣- يسوق عدة أمثلة على تميز العربية من: اتساع اللغة وكثرة الألفاظ، ووضوح دلالتها، ومن تنوع أساليب الكلام ومن وجود علم البديع؛ الذى به تفوقت وعلت وتميزت.

رابعاً: ابن جنى وحديثه عن اللغة العربية وأهلها:

يقول أبوالفتح عثمان بن جنى فى **(الخصائص)** عن مصدر اللغة العربية:

... «واعلَم فيما بعد، أننى على تقادم الوقت؛ دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعى والخوالج قوية التجاذب لى، مختلفة جهات التقول على فكرى، وذلك أننى إذا تأملت حال هذه **اللغة الشريفة، الكريمة**

اللطيفة، وجدت فيها من الحكمة والدقة، والإرهاف، والرقة، ما يملك على جانب الفكر، حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السحر. فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده، وبعد مراميه وآماده، صحة ما وفَقّوا لتقديمه منه. ولطفَ ما أُسعّدوا به، وفُرّق لهم عنه. وانضاف(*) إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله جل وعز، فقوى فى نفسى اعتقاد كونها توفيقاً من الله سبحانه، وأنها وحى.

(الخصائص ١/ ٤٧).

كما يقول ابن جنى فى **(المحتسب)**: «فاقلبنا (اللهم) إلى كنز جنتك التى لم تخلق إلا لمن وَسِعَ ظل رحمتك، واجعل أمامنا هادياً من طاعتنا لك، وزكوات ما علمتنا من وجوه حكمتك، وشرحت صدورنا لمعرفته من لطائف مودعات لغة نبيك التى فضلتها على سائر اللغات، وفرعت بها فيه سامى الدرجات».

(المحتسب ١/ ٣٢).

ثم يقول ابن جنى فى **(الخصائص)** فى فضل علماء اللغة العربية: «والقوم الذين لانشك فى أن الله -سبحانه وتقدست أسماؤه- قد هداهم لهذا العلم الكريم، وأراهم وجه الحكمة فى الترحيب والتعظيم، وجعله ببركاتهم، وعلى أيدى طاعاتهم خادماً للكتاب المنزل، وكلام نبيه المرسل، وَعَوْنًا على فهمهما، ومعرفة ما أُمرَ به، أو نُهِىَ عنه الثقلان منهما، إلا بعد أن يناهضه إتقاناً، ويثابته عرفاناً، ولا يُخلد إلَى سانح خاطره، ولا إلى نَزْوة من نزوات تفكره. فإذا هو حذا على هذا المثال، وباشر بإنعام تصفُّحه أحناء الحال، أمضى الرأى فيما يريد الله منه، غير معازّ به، ولا غاضّ من السَّلف -رحمهم الله- فى شىء منه. فإنه إذا فعل ذلك سُدِّد رأيه. شُيِّع خاطره، وكان بالصواب مئنةٌ، ومن التوفيق مظنَّة». (الخصائص ١/ ١٩٠).

تعقيب على رأى ابن جنى:

١- لعل أبرز مانجده فى كلام ابن جنى تجسيده للجانب النفسى الروحى لديه

* انضاف إلى: وأضف إلى ذلك.

فى اتجاهه نحو اللغة، وإصدار الحكم عليها، وعلى مصدرها حيث وصفها بالشريفة، وأن بها من الحكمة والدقة والرقة ما ملك عليه نفسه، وأنه باقتفائه خطى السابقين من علمائه يرى أن اللغة وحى من عند الله تعالى.

٢- كما يرى تميز العربية فى تفضيل الله تعالى لها على سائر اللغات وفى تشريف بعض القوم (من العلماء) وهدايتهم بدراستها وفقهها وخدمة كتابه الكريم، وكلام نبيه ﷺ، وهى عون لهم على فهمهما، ومعرفة أوامرهما ونواهيهما.

وهنا نجد ربطاً جيداً بين القرآن الكريم واللغة العربية لدى ابن جنى، وتأكيداً على أهمية دراسة اللغة لفهم الدين من مصادره الصحيحة.

خامساً: الثعالبى ورأى عظيم فى خيرية اللغة العربية:

يقول أبومنصور الثعالبى فى مقدمة كتابه **(فقه اللغة وأسرار العربية)** عن فضل اللغة العربية وحفظ الله تعالى لها:

«من أحبّ اللهَ أحبَّ رسوله المصطفى ﷺ ومن أحب النبى العربى أحبَّ العرب ومن أحبَّ العرب أحبَّ اللغة العربية التى بها نَزَلَ أفضلُ الكتب؛ على أفضل العجم والعرب. ومن أَحبَّ العربيةَ عُنى بها وثابر عليها، وصرفَ همّتَه إليها. ومن هداه الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حسن سريرة فيه. اعتقد أن محمداً ﷺ خير الرسل، والإسلامَ خيرُ الملل. والعربَ خيرُ الأمم والعربيةَ خيرُ اللغات والألسنة. والإقبال على تفهمها من الديانة. إذ هى أداةُ العلم. ومفتاح التَّفقُّه فى الدين. وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هىَ لإحراز الفَضَائِل والاحتواء على المروءةَ وسائر أنواع المناقب. كالينبوع للماء. والزِّند للنارِ. **ولو لم يَكن فى الإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها ومصارفها. والتبحر فى جلائلها ودقائقها إلا قوّة اليقين فى معرفة إعجاز القرآن**. وزيادَة البصيرة فى إثبات النبوة الذى هو عمدَة الإيمان لكفى

بهما فضلاً يحسن أثرَهُ. ويطيب فى الدارين ثُمره فكيف وأيسر ما خصها الله عز وجل. من ضرُوبُ الممادح ما يكل أقلام الكَتَبَة. ويتعب أنامل الحَسَبَة. ولما شرَّفها الله عزَّ اسمه وعظمها. ورَفعَ خَطَرهَا وكرمها. وأوحى بها إلى خير خلقه. وجعلها لسان أمينه على وحيه. وأسلوب خُلفائه فى أرضه. وأراد بقاءها ودوامها حتى تكون فى هذه العاجلة لخير عباده. وفى تلك الآجلة لساكنى دار ثوابه. قيّضَ لها حَفَظةً وخزنةً من خواص الناس وأعيان الفضلِ وأنجُمِ الأرضِ فنسوا فى خدمتها الشهوات وجابوا الفلوات. ونادَموا لاقتنائها الدفاتر. وسامروا القَمَاطر والمحابر. وكدوا فى حصر لغاتها طباعَهم وأسهروا فى تقييد شواردها أجفانهم. وأجالوا فى نظم قلائدها أفكارَهم. وأنفقوا على تخليد كتبها أعمارهم. فعظُمت الفائدة. وعمت المصلحة وتوفرت العائدة. وكلما بدأت معارفها تتنكر. أو كادت معالمها تَتَستَر. أو عرض لها مايشبه الفترة رد الله تعالى عليها الكرة. فأهبّ ريحها ونفق سوقها. بفرد من أفراد الدهر أديب. ذى صدر رحيب. وعزيمة راتبة. ودراية صائبة. ونفس سامية. وهمة عالية. **يُحبُ الأدب ويتعصبُ للعربية فيجمعَ شملها، ويكرم أهلها ويحرك الخواطر الساكنة لإعادة رونقها. ويستثيرُ المحاسن الكامنة فى صدور المتحلين بها».**

تعقيب على رأى الثعالبى:

١- يربط الثعالبى بين محبة الله وبين محبة رسوله الكريم ﷺ ومحبة العرب، وبين محبة العرب ومحبة لغتهم؛ التى شرفت بنزول أعظم الكتب بها.

٢- محبة العربية تقتضى المثابرة عليها، والعناية بها، وتوجيه العزم والهمة إلى الحفاظ عليها.

٣- يربط مرة أخرى بين العربية والإيمان، فقد جعل الاعتقاد بأن العرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة من سلامة السريرة فى الإيمان.

٤- من الدين الصحيح، فهم اللغة، ذلك لأنها سبيل العلم والطريق لفقه الدين، وقوة اليقين، وزيادة البصيرة.

٥- يرى الثعالبى أن تحصيل اللغة ومعرفتها له مردود على سلوك المرء، حيث المروءة- التى أكد عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -وحيث العطاء والإفاضة والريادة للعالم بها.

٦- يشير إلى أن العربية شرفها الله وعظمها، وكرمها ورفعها وجعلها لغة وحيه، ولغة نبيه ﷺ، ولغة خلفائه فى أرضه، ولغة أهل الجنة.

٧- أن الله سبحانه قيض لها حفظةً من عباده، وخزنةً من خير الناس، أفنوا أعمارهم فى خدمتها، والسهر عليها، وذلك بدافع الحب لها، والتعلق بها، والدفاع عنها.

٨- وقوله «يُحب الأدَبَ ويتعصبُ لَلعَرَّبية» لايفهم منه التعصب المذموم، والتشدد الممقوت لها، ولايقصد به الدعوة للعصبية اللغوية أو القبلية العربية، وإنما يُراد به التعصب فى الخير، وذلك بحبها وإجادتها والتحدث بها وإحيائها وإثرائها، والزود عنها، وربطها بحياتنا وتقريبها للعوام، وتسهيلها على أنصاف المتعلمين.

سادساً: القلقشندى وتفضيل اللغة العربية وسرد لبعض خصائصها:

يقول أبوالعباس أحمد بن على القلقشندى فى كتابه **(صُبح الأعشى فى صناعة الإنشاء[١])** فى باب (فى فضلها وما اختصت به على سائر اللغات):

«أما فضلها فقد أخرج ابن أبى شيبة بسنده **إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) أنه قال:** «تَعَلَمُوا اللَحْنَ والفَرَائضَ فإنّه مِنْ دِيّنكُمْ» قال **يزيد بن هارون**: «اللَحنُ هُوَ اللَغةُ»، ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأوضحها بياناً، وأذلقها لساناً، وأمدها رواقاً، وأعذبها مذاقاً، ومن ثَمَّ اختارها الله تعالى لأشرف رسله، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خلقه، وصفوته

من بريته، وجعلها لغة أهل سمائه، وسكان جنته، وأنزل بها كتابه المبين الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

قال فى صناعة الكتاب «وقد انقادت اللغات كلها للغة العرب، فأقبلت الأمم إليها يتعلمونها».

وأما ما اختصت به على غيرها من اللغات، فقد حكى فى «صناعة الكتاب» أنّها اللغةُ التامة الحروف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شىء من الحروف فيَشينِها نقصانه، ولم يزد فيها شىء فيعيبها زيادته، وإنْ كان لها فروع أخرى من الحروف فهى راجعة إلى الحروف الأصلية، وسائر اللغات فيها حروف مولدة، وينقص عنها حروف أصلية -كاللغة الفارسية- تجد فيها زيادةً ونقصاناً، وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد فى الفارسية وغيرها: كالحق والباطل والصواب والخطأ، والحلال والحرام، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربياً. **قال الفراء** «وجدنا للغة العرب فضلاً على لغة جميع الأمم اختصاصاً من الله تعالى وكرامة أكرامهم بها، ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد فى غيرها من اللغات».

صبح الأعشى (١/١٤٨ - ١٤٩).

تعقيب على رأى القلقشندى:

١- يستهل كلامه -رحمه الله- ببيان فضلها من المأثور عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حيث وصيته بتعلم اللغة (تَعَلَمُوا اللَحْنَ) أى اللغة.

٢- يذكر بعض خصائصها فى كونها أقوى اللغات، وأوضحها بياناً، وأكثرها ألفاظاً، وأعذبها ألفاظاً.. وهذا مما أعطاها السبق والفضل، فقد اختارها الله للغة كتابه ولأشرف رسله ﷺ.

٣- اختصت اللغة العربية بأنها اللغة التامة الحروف الكاملة الألفاظ، لا زيادة

ولا نقصان، وأنها بها من الإيجاز ما لا يوجد فى غيرها من اللغات، فهى أوجز اللغات(*).

٤- ينقل عن الفراء قولاً عظيماً فى تفضيلها على لغة جميع الأمم وذلك باختصاص من الله واختيار منه سبحانه، وامتنان على العرب وتكريم لهم.

سابعاً: أصحاب المعاجم اللغوية وفضل اللغة العربية:

ليس عجباً أن نجد كل صاحب قاموس لغوى -معجم- يبتدأه بتبيان فضل اللغة العربية وذكر بعض خصائصها، ونظراً لكثرة المعاجم اللغوية فإننا نختار بعضها لنتوقف قليلاً عندما قالوا عن تفضيل اللغة العربية.

١- يقول «أحمد فارس» فى تقديمه للسان العرب:

«الحمد لله منطق اللسان بتحميد صفاته، ومُلهم الجنان إلى توحيد ذاته، والصلاة والسلام على محمد أشرف مخلوقاته، وعلى آله وصحبه الذين اقتدوا بقداته واهتدوا بسماته. وبعد، فقد اتفقت آراء الأمم: العرب منهم والعجم، الذين مارسوا اللغات ودروا ما فيها من الفنون والحكم، وأساليب التعبير عن كل معنى يجرى على اللسان والقلم، على أن لغة العرب أوسعها وأسنعها، وأخلصها وأنصعها، وأشرفها وأفضلها، وآصلها وأكملها، وذلك لغزارة موادها، واطراد اشتقاقها، وسرارة جوادها، واتحاد انتساقها، ومن جملته تعدد المترادف، الذى هو للبليغ خير رافد ورادف، وما يأتى على روى

(*) مادمنا بصدد الإشارة إلى الإيجاز فى اللغة العربية كأبرز خصائصه وأن البلاغة جميعها جُمعت فى الإيجاز فإنا نؤكد على أن الإيجاز المطلوب هو الذى لايخل بالمعنى ولايذهبه ولايغيره حتى لايكون شأن المرء كهذا الأحمق الذى ذكره ابنِ الجوزى: فقد كان لبعض الأدباء ابن أحمق، وكان مع ذلك كثير الكلام، فقال له أبوه ذات يوم: يابُنى لو اختصرت كلامك إذ كنت لست تأتى بالصواب. قال: نعم فأتاه يوماً، فقال: من أين أقبلت يابنى؟ قال: من (سوق) قال: لاتختصرها هنا، زد الألف واللام، فقال: من (سوقال) قال: قَدِم الألف واللام قال: من (ألف لام سوق) قال: وماعليك لو قلت: (السوق) فوالله ما أردت فى اختصارك إلا تطويلاً.

(أخبار الحمقى والمغفلين/ ١٧١).

واحد فى القصائد مما يكسب النظم من التحسين وجوها؛ لانجد لها فى غيرها من لغات العجم شبيهاً.

وهذا التفضيل يزداد بياناً وظهوراً، ويزيد المتأمل تعجباً وتحييراً، إذا اعتبرت أنها كانت لغة قوم أميين، لم يكن لهم فلسفة اليونانيين، ولا صنائع أهل الصين، ومع ذلك فقد جعلت بحيث يعبر فيها عن خواطر هذين الجيلين بل سائر الأجيال إذا كانت جديرة بأن يشغل بها البال، ونحسن فى الاستعمال الذى من لوازمه أن يكون المعنى المفرد وغير المفرد موضوعاً بإزائه لفظ مفرد فى الوضع، يخف النطق به على اللسان، ويرتاح له الطبع، وهو شأن العربية، وكفاها فضلاً على ما سواها هذه المزية»

٢- أما صاحب اللسان -رحمه الله- الإمام العلامة أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، فيبدأ معجمه الكبير (الجامع «لسان العرب») بقوله:

«الحمد لله رب العالمين، تبركاً بفاتحة الكتاب العزيز واستغرافاً لأجناس الحمد بهذا الكلام الوجيز؛ إذ كل مجتهد فى حمده، مقصر عن هذه المبالغة، وإنْ تعالى، ولو كان للحمد لفظ أبلغ من هذا لحمد به نفسه، تقدس وتعالى؛ نحمده على نعمه التى يواليها فى كل وقت ويحددها، ولها الأولوية بأن يقال فيها نَعدُ منها ولانُعَددهُا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المشرف بالشفاعة المخصوص ببقاء شريعته إلى يوم الساعة، وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأبرار، وأتباعهم الأخيار، صلاة باقية بقاء الليل والنهار.

أما بعد فإن الله سبحانه قد كرم الإنسان وفضله بالنطق على سائر الحيوان، وشرف هذا اللسان العربى بالبيان على كل لسان، وكفاه شرفاً أنه به نزل القرآن، وأنه لغة أهل الجنان، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا العرب لثلاث: لأنى عربى، والقرآن عربى، وكلام أهل الجنة عربى»، ذكره ابن عساكر فى ترجمة زهير بن محمد ابن يعقوب».

٣- ويقدم الشيخ نصر الهورينى (للقاموس المحيط) بقوله:

«حمدا لمن شرف بظهور أشرف الكائنات لسان العرب، وقسم علومه إلى نقلية هى الشريعة، وعقلية الأدب، وجعل كلا منهما متوقفاً على معرفة اللغة، وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد وآله والذين نالوا من كل فضل أبلغه».

ثم يقول رحمه الله موضحاً أهمية دراسة اللغة العربية:

قال بعض المحققين: معرفة مفردات اللغة نصف العلم لأن كل علم تتوقف إفادته واستفادته عليها، وحكمه أنه من فروض الكفايات كما ذكره السيوطى فى المزهر: لأن به تُعرف معانى ألفاظ القرآن والسنة ولاسبيل إلى إدراك معانيهما إلا بالتبحر فى علم هذه اللغة.. لذا قال بعض العلماء:

حِفْظُ اللُّغَات عَلَيّنا ... فَرْضٌ كَحفْظ الصَّلاَة
فَلَيّسَ يُحْفَظُ دِيّنُ ... إلاَ بِحِفْظِ اللُّغَاتِ

٤- أما الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى فيستهل معجمه (القاموس المحيط) بقوله:

الحمد لله منطق البلغاء باللغى فى البوادى. ومودع اللسان ألسن اللسن الهوادى... إلى قوله.. باعث النبى الهادى، مفحماً باللسان الضادى كل مضادى، وأفصح من ركب الخوادى.

ثم يقول: «وعلم اللغة هو الكافل بإبراز أسرار الجميع، الحافل بما يتضلع منه الفاحل والكاهل والفاقع والربيع، وأن بيان الشريعة لما كان مصدره عن لسان العرب. وكان العمل بموجبه لايصح إلا بإحكام العلم بمقدمته وجب على روام العلم وطلاب الأثر يجعلوا عظيم اجتهادهم واعتمادهم، وأن يصرفوا جل عنايتهم فى ارتيادهم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها، والوقوف على مثلها ورسومها، وقد عنى به من الخلف والسلف فى كل عصر عصابة

هم أهل الإصابة، أحرزوا دقائقه، وأبرزوا حقائقه، ونظموا قلائده، وصنفوا وأجازوا، وبلغوا من المقاصد قاصيتها، وملكوا من المحاسن ناصيتها؛ جزاهم الله رضوانه وأحلهم من رياض القدس ميطافه».

٥- وصاحب (الصحاح) الإمام إسماعيل بن حماد بن حماد الجوهرى يقول فى مقدمة معجمه:

«أما بعد فقد أودعت هذا الكتاب ماصح عندى من هذه اللغة، التى شرف الله منزلتها، وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها.

٦- يقول المصحح فى تقديمه لكتاب (جمهرة اللغة) لابن دريد أبى بكر محمد بن الحسن الأزدى البصرى:

الحمد لله خالق الأمم ومربيها ومبيد الرمم ومحييها ومكور الدهور ومصرفها ومقدر الأمور ومعرفها - جاعل الألسنة واختلافها آية والأزمنة ويوم الدين غاية -الكريم ولا استحقاق والحكيم بلا شقاق- الرازق المرافق العون المرافق - له الحمد والثناء وبيده المنع والعطاء ومنه الَّلأْوَاء والنعماء هو اللجأ والعصرة وبه العصمة والنصرة. والصلاة والسلام على سيد الخلق رسول الحق أفصح من نطق وأبلغ من صدق الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب والحجة وأم الكتاب - وعلى آله الأخيار وصحابته الأبرار ما اعتكر ليل وكر نهار.

٧- وفى مقدمة (مغنى اللبيب) يقول مؤلفه الإمام العالم العلامة جمال الدين رحلة الطالبين أبومحمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصارى قدس الله روحه ونور ضريحه :

«أما بعد» حمداً لله على أفضاله «والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله».

فإن أولى ما تقترحه القرائح. وأعلى ما تجنح إلى تحصيله الجوانح. ما يتيسر به فهم كتاب الله المنزل. ويتضح به معنى حديث نبيه المرسل. فإنهما

الوسيلة إلى السعادة الأبدية. والذريعة إلى تحصيل المصالح الدينية والدنيوية، وأصل ذلك علم الإعراب. الهادى إلى صوب الصواب.

تعقيب على ماذكره أصحاب المفاهيم اللغوية:

١- يتفقون على أن اللغة العربية أوسع اللغات، وأشرفها، وأفضلها، وأغزرها مادة، وأكثرها اشتقاقاً، وأوضحها بياناً.

٢- تشريف اللسان العربى أمر مُقدر من قبل الله العلى الحكيم حيث شرفه بأن نزل به القرآن، وجعله لغة أهل الجنان.

٣- لا سبيل إلى التبحر فى العلم، والاغتراف من معينه إلا بتحصيل اللغة فكل علم تتوقف الإفادة به على معرفة اللغة، وعلوم الدين والدنيا تتوقف معرفتها على اللغة، ولذا فعلم اللغة هو الذى يبرز أسرار جميع العلوم، كما أنه علم غزير يأخذ منه كل إنسان بما يتناسب مع علمه وسنه ونضجه.

٤- فقه الشريعة الإسلامية مصدره لسان العرب، ولذا وجه المتقدمون جهدهم واجتهادهم وعنايتهم لمعرفة علم اللغة ودراستها، وتصنيفها، وبيان محاسنها، وكانت هى سبيلهم للإجادة والإبداع.

٥- يتيسر فهم القرآن العظيم وحديث رسوله الكريم ﷺ باللغة العربية؛ لذا فتحصيلها سبيل لتحقيق المصالح الدينية والدنيوية، وعلم النحو عونٌ على ذلك، لأنه يهدى إلى الصواب.

ثامنا: مقتبسات مما قاله بعض الأئمة:

ونورد الآن فقرات متناثرة من كتب التراث لعلماء اللغة العربية موضحة رأيهم بشأن فضل اللغة العربية(*).

١- **يقول أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة فى كتابه (تأويل مشكل القرآن) :**

«وانما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها فى الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال ما أوتيته العرب، خصيصَى من الله لما أرهصه فى الرسول ﷺ وأراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب».

(ارجع لتأويل مشكل القرآن/ ص٢٢).

٢- **يقول أبوالقاسم الزجاجى فى كتابه (الإيضاح فى علل النحو):**

«العربية هى التى فضل الله بها العرب وأنطقهم بها، وهى لغتهم».

كما يروى عن الزجاج أنه سمع العباس المبرد يقول «كان بعض السلف يقول: «عليكم بالعربية فإنها المروءةُ الظاهرةُ، وهى كلام الله عز وجل وأنبيائه وملائكته».

(ارجع للإيضاح ص ٩١ ، ص ٩٥).

٣- وفى مجال تقرير فضله ﷺ وفضل لغته (لسانه) **يقول أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابى فى مرجعه (ديوان الأدب)**:

«وأما اللسان فهو كلام جيران الله فى دار الخلد، وهو المنزه من بين الألسنة من كل نقيصة، والمُعلى على كل خسيسة، والمهذب مما يستهجن أو يستشنع». (ارجع للديوان: ١/ ٧٠ - ٧٢).

(*) أفدنا فى هذا الجزء من كتاب أستاذنا الاستاذ الدكتور محمد حسن جبل (خصائص اللغة العربية ـ تفصيل وتحقيق) القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٧، ص٣٢ - ٣٥.

٤- **ويرى الإمام أبوالحسين أحمد بن فارس صاحب كتاب (الصاحبى) رأياً صريحاً فى** القول بأن العربية أفضل اللغات وأوسعها «واختصت بخصائص لامثيل لها كالإعراب، والشعر، والعروض».

(ارجع للصاحبى ص ١٦، ص ٧٦)

٥- **أما ابن سنان الخفاجى صاحب كتاب (سر الفصاحة)** فيشير لفضل اللغة العربية ذاكراً أنه لا خفاء بميزة العربية على سائر اللغات، لما فيها من السعة، وأنها مع ذلك أخصر اللغات فى إيصال المعانى، ولتجنب الثقل فى ألفاظها، ولأن أصحابها العرب لاتنازعهم أمة فى فضائلهم، ولا تباريهم فى مناقبهم ومحاسنهم». (ارجع لسر الفصاحة ٤٨ - ٥٧).

٦- **ويقول أبوعثمان سعيد بن محمد المعافرى السرقطى فى (الأفعال)** «وأن أشرف ما عنى به الطالب بعد كتاب الله عز وجل لغات العرب وأدابها، وطرائف حكمها، لأن الله تبارك وتعالى اختارها بين اللغات لخير عترة وأشرف أمة، ثم جعلها لغة أهل دار المقامة فى جواره ومحل كرامته؛ فهى أفصح اللغات لساناً، وأوضحها بياناً، وأقومها مناهج، وأثقفها أبنية، وأحسنها بحسن الاختصار تألفاً، وأكثرها بقياس أهلها تصرفاً»(*) (ارجع للأفعال ١/ ٥١).

*** تعقيب عما قاله العلماء من (المقتبسات) السابقة عن ابن قتيبة والزجاجى، والفارابى، وابن فارس، والصاحبى، وابن سنان، والسرقسطى...، نوردها هنا تعميماً لا تفصيلاً، وتجميعاً لما اتفقوا عليه من مقولاتهم السابقة فيما يلى:**

(*) فى نهاية ماذكرناه من أقوال الأئمة فى شأن تفضيل اللغة العربية نجد رأياً لابن حزم الأندلسى فى شأن تفضيل اللغات، فيقول «وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات وهذا لامعنى له، ولأن وجوه الفضل معروفة، وإنما هى بعمل واختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة وقد قال الله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ فأخبر تعالى: أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام، لا لغير ذلك (الأحكام فى أصول الأحكام ١/ ٣٣). ذكرناه من أدلة قوية على أوجه تفضيل اللغة العربية؛ فيه ردٌّ على كلام ابن حزم رحمه الله، وحسبنا بعد ذلك ما قاله ابن حزم نفسه فى الصفحة التالية نقلاً عن بعض العلماء: إن العربية أفضل اللغات لأنه بها نزل كلام الله تعالى (المصدر ذاته ١/ ٣٤).

١- فضل اللغة العربية مرتبط بفضل القرآن الكريم، الذى لايعرف فضله إلا من اتسع علمه، وكثر نظره، واللغة سبيل لذلك.

٢- تفضيل العرب كان بالعربية، فبها فُضلوا، وكُرموا، وبها نطقوا، وبها مُيزوا، وبدت مناقبهم وفضائلهم ومحاسنهم.

٣- اللغة العربية أفصح اللغات لساناً، وأوضحها بياناً، وأقومها منهجاً، وأحسنها إيجازاً واختصاراً وقد اختارها الله لأشرف نبى ﷺ، وهى لغة أهل الجنة.

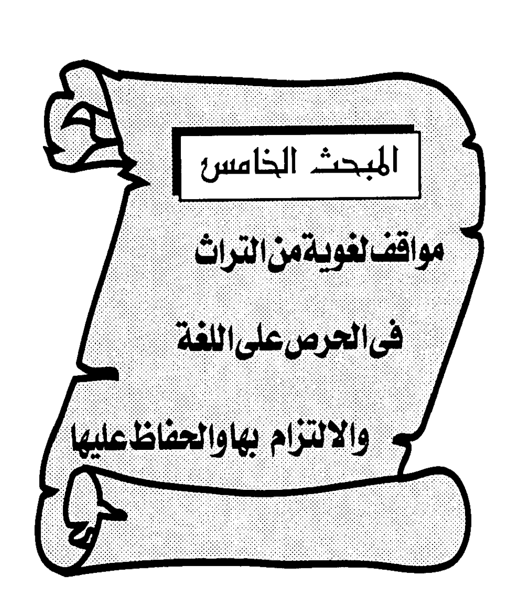
٤- اختصت اللغة العربية بالبيان، والسعة، واتساع المجال وعدم الثقل، والإعراب، والعروض، والإيجاز، فضلاً عن تنزيهها عن كل نقيصة، وبعدها عن كل خسيسة، وتهذيبها عن كل مستهجن.

٥- الالتزام بالعربية تحقيق للمروءة الظاهرة لدى المتحدث بها؛ حيث إنها أسرع تأثيراً، وأفضل إبانة، وأكثر جذباً وقبولاً لدى المستمع..

وبعد هذا العرض لكلام الأئمة فلسنا فى حاجة لكثير قول **فى فضل اللغة العربية**، بيد أن ما نؤكد عليه هو فضل التحدث بالعربية للمسلم، ولو كانت هذه هى الفائدة الوحيدة من هذا التناول التى دائماً ما نؤكد عليها لكفتنا، ولو خلص القارىء لذلك لكفاه وغناه..

ولست أحسبك تميل إلى رأى هؤلاء الواصفين للعربية بالصعوبة والتعقيد والغموض؛ مما استهدف به ديننا ولغتنا، ومما أضحى من قبيل المسلمات والثوابت لدينا أن مغرضين حاقدين مرضى هم الذين يشيعون ذلك، ويصدقون أنفسهم.

* * *


المبحث الخامس
مواقف لغوية من التراث
فى الحرص على اللغة
والالتزام بها والحفاظ عليها

المبحث الخامس: مواقف لغوية من التراث فى الحرص على اللغة والالتزام بها والحفاظ عليها

نعرض فى هذا الجزء لبعض المواقف المختارة من كتب التراث؛ نستلهم منها هدايةً ورشاداً فى مجال الحرص على اللغة والحفاظ عليها، وذلك من **خلال ثلاثة محاور**، نعرض فى **أولها**: لكيفية حرص علماء العربية على لغتهم مثل أبى الأسود الدوءلى، وأبى عمرو بن العلاء.. ونجد الإحساس القوى باللغة ومعانيها لدى أبى بكر الصديق رضى الله عنه، ولدى الإمام الشافعى رحمه الله، ولدى الحجاج بن يوسف الثقفى؛ من خلال مواقف لغوية كانوا طرفاً فيها..

ثم نعرج فى **ثانيها**: إلى التحرز اللغوى لدى علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم، مؤكدين على العلاقة العضوية بين اللغة العربية والقرآن الكريم؛ ومستشهدين لذلك بمأثورات عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وعن محمد بن زياد رحمه الله.

وفى **ثالثها**: نتحدث عن عناية العلماء بالنحو وبالتحدث بالفصحى وعدم الوقوع فى اللحن؛ ذاكرين أهمية علم النحو وقيمته للمرء وموقعه من علوم اللغة، ونعرض لبعض أقوال لهارون الرشيد والإمام مالك رحمه الله فى فضل التحدث بالعربية، ونبين بعد ذلك خطورة اللحن فى اللغة؛ مستشهدين لذلك بمأثورات لزياد بن أبيه وللخليفة عمر بن عبد العزير رضى الله عنه، ولأبى عمرو بن العلاء ولعبد الملك بن مروان.. ثم نوجز كل ذلك بخاتمة مُلخِصة للمحاور الثلاثة.. وتفصيل ذلك كله فيما يلى:

أولاً: حرص علماء العرب على اللغة:

عُنى العرب بلغتهم؛ لأنها كانت الوسيلة التى كانوا يستخدمونها فى التحدث بمآثرهم، والتغنى بأمجادهم، وكانت سلاحهم فى المناظرات والمنافرات.

وكان العربى يتعصب للغة قومه، ويباهى بصفاء لهجته، وكان يحرص على تنقية لغته، ويولى أبناءه عناية خاصة، فينشئهم فى البوادى **«مناطق الفصاحة»** ويبعدهم عن الحواضر؛ التى تختلط فيها اللغات، ويبتغى بذلك طبعهم بطابع الفصحى الخالصة من شوائب الحاضرة.

وكان من مزيد عناية القوم باللغة أن ميزان التفاضل بين الأئمة وحملة اللغة **كان سعة معرفة الرجل بكلام العرب ولغاتها وغريبها**، وكان الأمراء والملوك والخلفاء وأعيان الأمة يتسابقون إلى تأديب أبنائهم، أى تعليمهم الأدب العربى من اللغة والنحو والشعر وأخبار العرب ومفاخراتهم ومنافراتهم؛ ليحفظوا كلامهم ويقووّا به ملكاتهم اللغوية، وكان أكبر عيب فى الشريف العربى أن يلحن فى كلامه فلا يأتى بالحركات الإعرابية أو الحركات اللغوية على وجهها، كل ذلك كان فى سبيل حفظ اللغة ورونقها وجدتها، وتقوية ملكة الفصاحة فى النفوس.

(ارجع لمعجم متن اللغة ١/ ٥٢ - ٥٣)

وقد انحصر جهد علماء العربية فى **التعمق فى دراسة اللغة العربية** لمعرفة أسرارها، وقوانينها؛ بهدف فهم النصوص الدينية والمحافظة على أصالة العربية من تأثير الجماعات اللغوية الأخرى؛ التى اعتنق أفرادها الإسلام.

ونلمح حرص العلماء على اللغة واقدارهم لها؛ مما ذُكر أن أبا الأسود الدوّءلى أقدم أئمة اللغة، قالت له ابنته متعجبة، وقد نظرت إلى السماء ونجومها فى ليلة صافية «ما أحسنُ السماء!!» ورفعت أحسن، وحقها فى التعجب النصب وفى الاستفهام الرفع، ففهم أبوها الاستفهام على ظاهر ماتكلمت به، فقال لها فى الجواب: نجومُها، أى أحسنها نجومها. فأدركت خطأها، وقالت: أنا متعجبة ولست بمستفهمة. (وكان هذا دافعاً لوضع أبى الأسود لعلم النحو بعد أن أشار عليه الإمام على بن أبى طالب بذلك).

وقد بلغ تعلقهم باللغة وشغفهم بها أن قدموها على ما عداها من أمور عظام، ومن ذلك أن أبا عمرو بن العلاء كان مولعاً باللغة، فخرج مع أبيه إلى اليمن هاربين من بطش الحجاج بن يوسف الثقفى، وبينما هما بصحراء اليمن إذ لحقهما لاحق، ينشد:

رُبَما تَكْرَهُ النُفُوسُ من الأمْرِ   لَهُ فَرْجَةٌ كَحَلِ العِقَالِ

فقال أبوه: ما الخبر؟ قال المنشد: مات الحجاج. قال أبو عمرو: **فأنا بقوله (فَرْجَة) أشد سروراً منى بموت الحجاج. .**

(ارجع لوفيات الأعيان: ٣/ ١٣٧)

ولعلنا لايخفى علينا **الحس اللغوى لأبى بكر الصديق** رضى الله عنه، عندما لحظ ملحظاً جيداً فى الواو الفارقة، وبذلك عندما دار حوار بينه وبين رجل بشأن ثوب، فقال الصديق: أتبيع هذا الثوب؟ فقال الرجل: لا يرحمك الله. . فقال أبوبكر: يا هذا قل: **لا . . ويرحمك الله. .**

وهذا إحساس قوى بأهمية الحرف الواحد، فى اختلاف المعنى ونقله من دلالة المدح إلى الذم، أو نقلها من مجرد الدعاء له إلى الدعاء عليه. . وهذا بالطبع يحتاج إلى إقدار للغة وتراكيبها ودلالتها.

وليس ببعيد هذه الرواية التى نُقلت عن **الإمام الشافعى** رحمه الله - فى أمر قريب مما تقدم- وذلك عندما دخلت عليه امرأة فى مرضه؛ فدعت له بالشفاء بقولها، **«أدعو اللهَ أن يُشفيك»** فتبسم الشافعى وقال **«اللهم بقلبها وليس بلسانها»**.

والمعنى أنها كان ينبغى أن تقول (يَشفيكِ) من الشفاء الحقيقى المأخوذ من

قوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. أما ما فطن إليه الشافعى -وهو الشاعر والأديب- أن (يُشفيك) بمعنى الهلاك(*).

ومن هنا جاء تعقيبه الاستدراكى -الطريف الذكى- على كلام هذه المرأة، التى أفلت منها المعنى وانقلب إلى مقابلة (ضده) لمجرد اختلاف الحركة من الضبطية على الحرف فى أول الكلمة.

وما دمنا قد أشرنا لقول الشافعى رحمه الله فإنه يقفز إلى ذهننا هذه الطرفة العجيبة؛ التى **دارت بين الحجاج بن يوسف وبين غلام**؛ أغلظ القول على الحجاج، وأنهى مناظرته إياه بقوله للحجاج «**يا أمير بيّض اللهُ وجهَك وأعلَى كعبَكَ**» فسأل الحجاج جلساءه: ماذا أراد الفتى بقوله هذا؟ فقالوا: يدعو لك يا أمير. فقال لا، إنه يدعو علىّ.. فقوله: «بيّض اللهُ وَجْهَك» أراد بى البرص، وقوله: «أعلى كعبك» أراد بى أن أُصلب، فيعلى كعبى.. فقال له الحجاج: ألست تقصد هذا يا فتى؟ قال له: بلَىَ مَا أشدَ ذَكَائَك!! قاتَلك اللهُ.

ثانياً: التحرز اللغوى عند علماء العرب فى دراسة القرآن الكريم:

لعل العلاقة الطبيعية بين فهم اللغة العربية وبين علم التفسير جعلت عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يلجأ فى تفسيره للقرآن الكريم إلى الأصول اللغوية عند العرب وكلما سئل عن معنى آية قرآنية؛ فإنه يستشهد بالشعر الجاهلى فى إثبات معنى ما، أو يستعجم عليه المعنى حتى يجد ضالته فى الشعر الجاهلى. إذ يتطلب التفسير رصيداً لغوياً كبيراً، وقدرة على استحضار المعنى من آبيات الشعر الجاهلى.

(*) (يُشفيك) بضم الياء فى أوله مأخوذة من الأصل الرباعى (أشفى) أى أشفى على الهلاك، ومنه فى الحديث «فأشفوا على المرج» أى أشرفوا، وأشفوا على الموت. أما (يَشفيك) بفتح الياء فهى مأخوذة من الثلاثى (شفى) أى من البرء من المرض والسقم وهو المشار إليه فى الآية الكريمة ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾. (ارجع إلى لسان العرب ١٤/٤٣٦)

وهو فى هذا يتسق مع قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه «**أيها الناس عليكم بديوانكم لا يضل. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية**».

ويستشهد عمر نفسه بقول الشاعر أبى كبير الهذلى:

تَخَوَّفَ الرجْلُ منهَا تَامِكَناً قردا   كَمَـا **تَخَوَّفَ** عَـود النَبعةِ السـفن

وذلك لتفسير قوله تعالى ﴿**أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [**النحل**:٤٧]. أى يهلكم الله حال كونكم خائفين مترقبين.

وقد فسر عمر بن الخطاب التخوف بالتنقص؛ وذلك استرشاداً بالبيت السابق.

وابن عباس رضى الله عنهما من أكثر الصحابة اهتداءً بالشعر الجاهلى فى تفسير القرآن الكريم.

كما نجده **يحتكم إلى الأعراب فى البادية**؛ ليستقى منهم أمراً دلالياً معيناً، ومن ذلك ما رواه سفيان الثورى عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كنت لا أدرى **ما فاطر** السماوات والأرض، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما لصاحبه: **أنا فطرتها أى بدأتها**. .

وذلك فى تفسير قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [**فاطر**:١].

(تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٤٦)

كما يقول عن نفسه: ما كنت أدرى ما معنى قوله تعالى ﴿**رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ**﴾ [**الأعراف**:٥]. حتى سمعت قول بنت ذى يزن: تَعَالَ أفَاتِحْكَ. تقول: تَعَالَ أُخَاصِمْكَ.

(الإتقان: ٢/ ٥)

وكما أشرنا فقد فسر ابن عباس رضى الله عنهما كثيراً من الآيات مستعيناً بكلام العرب وأشعارهم، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان أسئلة نافع ابن الأزرق له، فقال:

«بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة؛ قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسيرِ القرآن؟ فقال نافع لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به؛ فقاما إليه، فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله، فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما فقال نافع: أخبرنى عن قوله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [**المعارج**:٣٧] قال: العِزون الحلق الرقاق، قال: وهل تعرف العربُ ذلك، قال نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص، وهو يقول:

فَجَاءوا يُهْرَعُـون إليه حتى ... يكونُـوا حَوْلَ مِنْبَرِه عِزِينـا

قال أخبرنى عن قوله تعالى ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥].

قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، ماسمعت قول عنتره وهو يقول:

إنَّ الرِّجَـال لَهُمْ إِلَيْـكِ **وَسِيلَةٌ** ... إنْ يأخُذُوكِ تَكَحَلى وتَخضَّبى

(الإتقان ٢/ ٦٧ ـ ٦٩)

إلى غير ذلك من الأسئلة والأجوبة التى أوردها السيوطى والتى يُفهم منها أن الشعر ديوان العرب، فإذا خفى عليهم المعنى **الذى أنزل الله بلغة العرب رجعوا إلى ديوانها**..

وابن عباس، وهو حِبر هذه الأمة وعالمها لايخجل من أن يقول «كنت لا أدرى...» وهذا منهج محمود فى إقدار قيمة الكلمة والتورع عن الخطأ، ولذا نجد محمد بن زياد يسأل عن أكثر من سأله فى مجلس واحد فيقول: لا أدرى..

ويسأله رجل: مامعنى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(*) [طه: ٥].

فيقول ابن زياد: هو على عرشه كما أخبر «قال الرجل ليس كذلك. هو يا أبا عبد الله إنما معنى قوله تعالى استوى استولى فقال ابن الأعرابى: أسكت ما يدريك ما هذا. العرب لا تقول للرجل استولى على الشئ حتى يكون له فيه مضاد، فأيهما غلب قيل: استولى عليه. والله لا مضاد له، وهو على عرشه، كما أخبر. والاستيلاء بعد المغالبة، قال النابغة:

أَلاَ لِمِثْلِكَ أَو مَنْ أَنْتَ سَابِقَهُ ... سَبْقَ الجَوَادِ إذَا **اسْتَولَى** عَلَى الأَسَدِ

ثالثاً: عنايتهم بالنحو، وبالتحدث بالفصحى، وعدم اللحن:

النحو -كما يقول القلقشندى- قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها، وهو علم لايستغنى عنه، ولا يوجد منه بُد، والجهل بالنحو لا يقدح فى فصاحة ولا بلاغة، ولكنه يقدح فى الجهل به نفسه، لأنه رسوم قوم تواضعوا عليه، وهم الناطقون باللغة فوجب اتباعهم.

والنحو هو العلم باللغة التى نزل بها القرآن، وهى لغة النبى الكريم ﷺ وكلام أهل الجنة ولسان أهل السماء.

(صبح الأعشى ١/١٦٧ ـ ١٧٢)

ولأن اللغة العربية هى رأس مال المرء، وأساس مقاله وكلامه، وكنز إنفاقه، وحينئذ يحتاج إلى المعرفة بالنحو وطرق الإعراب، والأخذ فى تعاطى ذلك، حتى يجعله دأبه، ويصيره ديدنه؛ ليرتسم الإعراب فى فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقاله وكلامه، ويزول به الوهم عن سجيته، ويكون على بصيرة من عبارته..

(*) يرى السلف فى تفسير هذه الآية أن الله سبحانه أخبر فى سبعة مواضع من كتابه أنه استولى على العرش، ولا معنى لذلك إلا علوه وارتفاعه عليه سبحانه، وهذا هو رأى المفسرين. واللغة لاتستعمل الاستواء متعدياً بعلى إلا بمعنى العلو والارتفاع، وأما تأويله بالاستيلاء على العرش استناداً لقول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... بغير سيف أو دام مهـراق

فهذا مما لانقبله، لأن الاستيلاء يقتضى التصارع والمنازعة بأن يكون العرش فى حوزة غيره سبحانه، ثم يستولى هو عليه.. وهذا معنى قبيح لايمكن الخلوص إليه عقلاً أو لغة أو ديناً.

وكما قال القدماء: فإذا أتى المرء من البلاغة بأعلى رُتبة، **ولحن فى كلامه، ذهبت محاسن ما أتى به،** وانهدمت طبقة كلامه، وألغى جميع محاسنه، ووقف به عندما جهله.

ولذا: فهذا العلم - النحو وعدم اللحن- ليس مختصاً بعلم اللغة، بل هو واجب لكل العلوم، وينبغى معرفته لكل أحد ينطق اللسان العربى؛ ليأمن معرة اللحن.

وكما قال صاحب (الريحان والريعان): ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبى ﷺ **يحثون على تعلم اللغة العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها**؛ إذ هى من الدين بالمكان المعلوم، والمحل المخصوص. (وقد مر من كلام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ما يؤكد ذلك).

وفى فضل التحدث بالعربية والالتزام بها نسوق... قول هارون الرشيد يوماً لبنيه **«ما ضَرَّ أحدَكم لو تعلَّم من العربية مايُصلِح به لسانه، أيسُر أحدَكم أن يكون لسانُه كلسان عبده وأَمَتِه»؟.**

ومن كلام الإمام مالك بن أنس **«الإعراب حُلْيُ اللِّسان فلا تَمْنَعوا ألسِنَتكُم حُلِيَّها».**

ويعضد ذلك قول أبى سعيد البصرى:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الألْكَنِ ... والمَرْءُ تُكْرِمُهُ إذا لم يَلْحَنِ
وإذَا طَلَبْتَ مِن العُلُومِ أجَلَّهَا ... فأجَلُّها عِنْدِى مُقِيمُ الألْسُنِ

ولذا فاللحن قبيح فى كبراء الناس وسراتهم، وإذا حدث لحن -خطأ لغوى- فسد المعنى، فاللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد إلى ضده؛ حتى يفهم السامع خلاف المقصود.

ومن ذلك ماروى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ ﴿ **أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ** ﴾[التوبة:٣]. وذلك بجر رسوله، فتَوهَمَ عطفه على المشركين. فقال:

أوقد برىء اللهُ من رسولِه؟ فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر **ألا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية**.

وقرأ آخر ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨]. وذلك برفع الأول ونصب الثانى، فجعل الله يخاف العلماء بنقله الفتحة إلى ضمة، والضمة إلى فتحة فقيل له: ياهذا إن اللهَ لا يخشى أحداً، فتنبه لذلك وتفطن له(*).

وقال رجل لآخر: **ماشأنَك؟** بالنصب، فظن أنه يسأل عن شيّن به، فقال عظم فى وجهى (وحقه أن يقول: ما شأنُك).

وتروى هذه الطرفة العجيبة فى أهمية الالتزام باللغة وعدم الوقوع فى اللحن، فقد دخل رجل على زياد بن أبيه فقال: إن أبونا قد مات، وإن أخينا قد وثب على مال أبانا فأكله، فقال زياد: **لَلَّذى أضعتَه من كلامِك -لسانك- أضرُّ عليك مما أضعته من مالك**.

ونجد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه **يلحن ذات مرة**؛ فنُبه إلى ذلك فما كان منه إلا أن حبس نفسه فى منزله ومعه من يعلمه العربية، **ولم يخرج على الملأ إلا وهو أفصح الناس**.

ولذا نرصد له -لعمر بن عبد العزيز- قولاً عظيماً فى خطورة اللحن حيث يقول: «إن الرجل ليكلمنى فى الحاجة يستوجبها فيلحن **فأرده عنها**، وكأنى أقضم حب الرمان الحامض، لبغضى استماع اللحن. ويكلمنى آخر فى الحاجة لا يستوجبها فيُعرب **فأجيبه إليها**؛ التذاذاً لما أسمع من كلامه».

وقوله أيضاً: **«أكاد أضرس إذا سمعت اللحن»**.

(ارجع للاضداد لابن الانبارى/ ٢٤٥)

(*) نشير هنا إلى وجود قراءة -شاذة- للآية الكريمة وذلك برفع (اللهُ) ونصب (العلماءَ) على معنى انتقالى أراد به بعضهم أن الله يخاف العلماء أى لايعذب العلماء من عباده يوم القيامة، وهذا تزيد لفظى ودلالى فى فهم الآية الكريمة ولانقبله، خاصة أن القرآن الكريم يفهم طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولاتعسف.

ولذا مر عمر بن الخطاب رضى الله عنه برجلين؛ يرميان، فقال أحدهما للآخر أسبت (يعنى أصبت) فقال عمر: **«سُوءُ اللَّحْنِ أشَدُّ مِنْ سُوءِ الرَّمَيِ»**.

ويروى أن أبا عمرو بن العلاء مر بالبصرة فإذا أعدال مطروحة مكتوب عليها «لأبو فلان» فقال: **«يارب يلحنون ويُرزقون»**. أرأيت كيف ربط بين الوقوع فى اللحن وبين قضية الرزق.

و لعلك تعجب من هذه العلاقة العجيبة بين الحرص على اللغة وبين الوقار والهيبة من هذه الرواية: فقد روى أن عبد الملك بن مروان وإن لم يكن قد عُرف عنه اللحن فإنه كان يتجنبه ويتوقاه ولهذا حين سئل: لماذا عجل الشيب إلى رأسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «**شيبتنى مواقف الخطابة -المنابر- وتوقع اللحن**».

وليس عجباً أن نجد أن أبا أيوب السخيانى كان إذا لحن فى حرف قال: **استغفر الله**.

وينبغى أن نشير أن حرص العلماء على اللغة وعدم اللحن فيها، لايعنى تقعرهم فى استخدامها، أو استعمال الغريب والحوشى منها، حيث نجد نهياً نبوياً عن ذلك فى قوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الترمذى وأبوداود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما **«إنَّ اللهَ يُبْغِضُ البَلِيْغَ مِنْ الرِجَالِ الذى يَتَخَلَلُ بِلسَانِه كَما تَتَخَلل البقرة»** وفى قوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما «... **وإن أبغضكم إلىّ، وأبعدكم منى يوم القيامة؛ الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»(*).

(*) الثرثار : كثير الكلام تكلفاً، والمتشدق المتطاول على الناس بكلامه ويتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعظيماً لكلامه. والمتفيهق: الذى يملأ فمه بالكلام ويتوسع فيه، ويعرب به تكبراً وارتفاعاً وإظهاراً للفضيلة على غيره.

والتقعر والتشدق المنهى عنهما يكونان بتكلف الفصاحة والتصنع المزموم فى الكلام والزيادة فيه؛ مما لايدخل فى تحسين الألفاظ ورشاقة اللفظ **«فَما قَلّ وكَفَى خيّرٌ مما كثُر وألهى»**.

ولعلك تعجب من ثنائهم على خطبائهم وفصحائهم لولا أنهم يتقعرون فى الكلام، وجاء فى هذا المعنى أن زرعة بن ضمرة، وهو الذى قيل عنه **«لولا غلوٌ فيّه ماكَانَ كَلامُه إلا الذَهَبَ»**.

(البيان والتبيين ١/ ٣٥٤)

ويقول القلقشندى: أما المبالغة فى الإعراب والمبالغة - فإن حكمه فى الاستكراه حكم التقعر فى الغريب، وقد كانوا يزمون من يتعاناه، ويسخرون بمن يتعاطاه، قال الأصعمى خاصم عيسى بن عمر النحوى رجلاً إلى بلال ابن أبى برده، فجعل عيسى يُشبع الإعراب ويتعمق فى الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه، فقال له القاضى: **«لأن يذهب بعضُ حقٍّ هذا أحب إليه من تركه الإعرابَ؛ فَلا تَتشَاغَلْ به، واقصد بحُجتك»**.

(صبح الأعشى١ / ١٧٢

ونجد فى تراثنا من تحذلق فى استعمال اللغة بما لايليق به المقام، ولا يحتمله الموقف، وهذا فى تصورنا رغم أنه يبدو التزاماً باللغة إلا أنه مذموم لعدم مناسبته لمقتضى الحال ومن ذلك ما يروى: أنه قدم على ابن علقمة النحوى ابن أخ له فقال له: ما فعل أبوك؟ قال مات، وما فعلت علته؟ قال ورمت قدميه، قال «قل قدماه» قال: فارتفع الورم إلى ركبتاه، قال: قل ركبتيه فقال: **دعنى ياعم فما موت أبى بأشدّ علىّ من نحوك هذا!!**

ويبدو أن أبا علقمة النحوى اشتُهر بالتحذلق وذلك لكثرة ما نُقل عنه فى ذلك، ومن ذلك أنه -أبوعلقمة- دخل على طبيب، فقال: امتع الله بك، إنى أكلت من لحوم هذه الجوازم فطئست طسأة(*) فأصابنى وجع من الوالبة

(*) طسىء أى أتخم وأكل فوق طاقته.

إلى ذات العنق، فلم يزل يربو وينمو حتى خالط الحلب والشراسيف فهل عندك دواء؟ قال نعم خذ حرقفاً وسلقفاً وسرقفاً فزهرقه وزقزقه واغسله بماء روث واشربه فقال أبو علقمة: **لم أفهم عنك هذا، فقال أفهمتك كما أفهمتنى.**

وهذا كله ينافى الفصاحة والبلاغة، لأنه تشدق وتقعر وتكلف وتحذلق، وهذا من المذموم فى الكلام.

ونخلص من المحاور الثلاثة السابقة إلى عدة نقاط مهمة نعرض لها فيما يلى:

١- **أن العرب حرصوا على لغتهم، وأولوها مزيد عنايتهم**، وكانت ميزان تفاضلهم.. ولذا سعوا إلى التعمق فى دراسة أسرارها وفهمها؛ إذ هى السبيل لفهم النصوص الدينية.

٢- **الحس اللغوى لدى الصحابة والعلماء والأئمة استمد أسسه من إدراكهم لأهمية اللغة فى تغيير المعنى**، وإقدارهم لقيمة الحرف أو الكلمة فى الدلالة والمراد.

٣- تطلب تفسير القرآن الكريم إلماماً باللغة، ورصيداً كبيراً منها وهذا ماجعل الصحابة رضوان الله عليهم يستعينون بالشعر الجاهلى فى تفسير القرآن الكريم، واستقراء ما غمض من معانيه.

٤- **التحرز اللغوى لدى علماء العرب جعلهم يضعون اللغة والإفتاء فيها بمنزلة العلوم الشرعية**، وهذا تأكيد لورعهم اللغوى، وإقدارهم لقيمة الكلمة، والتورع عن الخطأ.

٥- **يمثل النحو عمود العربية وأساسها وقانونها وميزانها**، ولذا فهو سبيل الإجادة اللغوية والفصاحة، أنه علم لا يستغنى عنه للمتحدث والكاتب والقارىء والمستمع.. كما أنه رأس العلوم أو العلم المستطيل الذى يدخل فى كل العلوم «دينية ودنيوية» فهو واجب ومطلوب لكل العلوم، وينبغى معرفته لكل ناطق بالعربية.

٦- حث الخلفاء الراشدون على **تعلم العربية والتحدث بها**(*) وحفظها ورعايتها، وذلك لمكانتها العظيمة فى الدين..

٧- **قُبح اللحن - الوقوع فى الخطأ اللغوى - لدى العلماء**، لأنه يفسد المعنى ويغيره ويقلبه إلى غير المراد منه وخاصة عندما يكون فى قراءة كتاب الله بتغيير حركة إعرابية؛ فيؤدى ذلك إلى الزلل والخطأ البين.

٨- **عدّ العلماء الخطأ فى اللغة والوقوع فى اللحن وضياع اللسان أشد ضرراً من ضياع المال**.. كما أن إجادة المرء لغته يؤدى إلى قضاء شئون حياته بسهولة ويسر.

٩- هناك علاقة بين الالتزام باللغة وبين الوقار والهيبة لدى من يفعل ذلك، والعلاقة نفسها بين الوقوع فى اللحن وبين ضرورة التكفير عن ذلك بالاستغفار لدى بعض العلماء.

١٠- **هناك ذم للتقعر والتشدق والتحذلق والتكلف فى اللغة**، وذلك بالمبالغة فى الإعراب، واستخدام الغريب من الكلام والتصنع المذموم فيه، وإدعاء الفصاحة، وقد يؤدى هذا إلى سخرية المستمع منه، وإلى ضياع حقوق المتقعر لنفور الناس عنه، وعدم تحملهم للغته.

* * *

(*) لعله من تمام المعرفة أن نشير لمقولة مهمة، تعضد ماذكره السلف بشأن فضل التحدث بالعربية، وردت فى وصايا أحد العلماء المعاصرين حيث قال: تحدث العربية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً فإنها لغة القرآن.

الخاتمة

بعد أن طوفنا فى **حديقة اللغة العربية**، وقطفنا بعض ثمارها فلا نجد حاجة **للتأكيد على فضلها**، وضرورة الحفاظ عليها، والالتزام بها والحرص على التحدث بها، واعتبار ذلك واجباً دينياً. .

وقد قدمنا من **النصوص الدينية ما يؤكد سموها وأفضليتها**، وقدمنا من أقوال السلف ما يؤكد تميزها وتفردها، وعضدنا ذلك بمواقف لغوية فى الحرص على اللغة والتحرز من اللحن، وتقبيح الخطأ. .

وفى المبحث الأول كان تركيزنا فى الطرح النظرى على أوجه فضل اللغة العربية، وبيان بعض خصائصها وإبراز العلاقة بينها وبين القرآن العظيم، **وكذا إبراز حال اللغة العربية هذه الأيام فى مجتمعنا المسلم.**

أما فى المبحث الثانى فقد حرصنا فيه على **دراسة الآيات القرآنية** التى ضمنت لفظ (العربية) أى الإشارة إلى كون القرآن الكريم عربياً، وذلك من خلال تحليل هذه الآيات الأحدى عشرة والتعقيب عليها.

وكان المبحث الثالث سياحة فى **أحاديث الرسول الكريم** ﷺ؛ لنتوقف عند بعض ما ورد عنه فى مجال فضل اللغة العربية وكونها لغة أهل الجنة، وبيان دعوته ﷺ للغة العربية وتأكيد فصاحته وبلاغته وقوة لغته.

ثم عززنا ذلك برصد ما قاله الأئمة والعلماء فى فضل اللغة العربية وفضل تعلمها وخيريتها وأوجه تفضيلها وسر تفوقها، وذلك من خلال ما قالوه فى فترات تاريخية مختلفة، **وهذا ما عرض له المبحث الرابع.**

أما المبحث الخامس، فجاء استلهاماً لمواقف لغوية من التراث فى مجال الحرص على اللغة والتحرز من الخطأ وبيان مدى عناية العلماء بالنحو

وبالتحدث بالفصحى وعدم اللحن، وضرورة الالتزام بالعربية، وتأكيد الجانب الدينى فى دراسة اللغة، وخطورة التفريط فى اللسان العربى.

ويبرز تساؤل فى نهاية رحلتنا عن **حاجة المسلم إلى اللغة العربية.**

الحق أننا أكدنا أنه لولا القرآن الكريم لما انتشرت اللغة الفصحى فى الخافقين، ولولا القرآن لما أقبل الألوف من البشر على قراءة تلك اللغة، وعلى كتابتها ودرسها والتعامل بها، وبلغة القرآن تقهقرت لغات محلية فى الدول المفتوحة.. **فالقرآن العربى هو الحصن الذى تحتمى به اللغة العربية**، وتقاوم أعاصير الزمن، وعواصف الهدم والعداء..

ونظراً للعلاقة الطبيعية بين الإسلام والعربية، لذا وجب على كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده؛ لأنها لغة صلاته وتسبيحه؛ خاصة أن القرآن الكريم لايُترجم بلفظه، وكلما تعلم المسلم اللغة العربية كان خيراً له فى فهم أمور دينه.

وحاجة المسلم إلى اللغة تكون بنفس قدر حاجته إلى هداية القرآن فالتفقه فى العربية وتعلمها وفهمها من الدين، والالتزام بالعربية هو تثبيت للعقل وزيادة فى المروءة، والتحدث بالعربية الفصحى وعدم اللحن فيها والبيان بها كل هذه نعم من الله تعالى على المرء كما أكدنا على ذلك بنصوص عديدة.

وحسبنا أن نؤكد المعانى المتقدمة بما **قاله الإمام ابن تيمية بشأن اللغة العربية وضرورة الاعتياد عليها وتعلمها** «إن اللسان العربى شعار الإسلام وأهله، واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيناً. وأن اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض ولايُفهم إلا بالعربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ويكره التخاطب والتعاقد بغير العربية إلا لحاجة».

وختاماً.. فهذه لغتنا، وهذا فضلها، وهذا ماورد بشأنها من أوجه تفضل، وهذا هو الدر كامن فيها.. فأين الغواص؟..

والله أسأل أن يجعلنا من حفظة لغته، وأن تكون دعوتنا إلى الالتزام بالعربية والحفاظ عليها وعدم التفريط فيها فى ميزان حسناتنا يوم القيامة.. وأن ينفع الله بهذا العمل بقدر ما يُؤمل من ورائه من فائدة إن شاء الله..

والله من وراء القصد والحمد لله رب العالمين..

* * *

بعض المراجع المستعان بها

١ - القرآن الكريم.

٢ - إبراهيم أنيس : **اللغة بين القومية والعالمية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م.

٣ - أحمد جمال العمرى : **مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م.

٤ - أحمد رضا : **معجم متن اللغة**، بيروت، دار مكتبة الحياة.

٥ - أحمد رضا : **مولد اللغة**، بيروت، دار الرائد العربى، ١٩٨٣م.

٦ - أحمد سمير بيبرس : **الواقع اللغوى والهوية العربية**، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٨٩م.

٧ - أحمد مختار عمر : **العربية الصحيحة**، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٨١م.

٨ - أنور الجندى : **الفصحى لغة القرآن**، بيروت، دار الكتاب اللبنانى.

٩ - الثعالبى (أبو منصور) : **فقه اللغة وسر العربية**، بيروت، دار مكتبة الحياة.

١٠ - جابر قميحة : **أدب الخلفاء الراشدين**، دار الكتب الإسلامية، ودار الكتاب المصرى، ودار الكتاب اللبنانى.

١١ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : **البيان والتبيين**، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٨٥م.

١٢ - ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على) : **أخبار الحمقى والمغفلين**، بيروت، دار الآفاق الحديثة، ١٩٧٩م.

١٣ - ابن جنى (أبو الفتح عثمان) : **الخصائص**، بيروت، دار الهلال للطباعة والنشر.

١٤ - الجوهرى (إسماعيل بن محمد) : **تاج اللغة وصحاح العربية**، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٩م.

١٥ - جمال العيسوى، أحمد عبده عوض : **اللغة العربية نماذج أدبية ونقدية**، مطبعة أورفو، ١٩٩٢م.

١٦ - الخفاجى (ابن سنان) : **سر الفصاحة**، القاهرة، مطبعة محمد على صبيح، ١٩٦٩م.

١٧ - ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن الأزدى البصرى) : **جمهرة اللغة**، بيروت، دار ضاد.

١٨ - الزجاجى (أبو القاسم) : **الإيضاح فى علل النحو**، بيروت، دار النفائس، ١٩٨٢م.

١٩ - الأزهرى (أبو منصور) : **تهذيب اللغة**، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

٢٠ - السرقسطى (أبو عثمان سعيد بن محمد) : **الأفعال**، القاهرة، مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥م.

٢١ - السيوطى (عبد الرحمن جلال الدين) : **الإتقان فى علوم القرآن**، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبى.

٢٢ - السيوطى : **الدر المنثور فى التفسير بالمأثور** ، بيروت، دار الكتب اللبنانية.

٢٣ - السيوطى : **المزهر فى علوم اللغة وأنواعها**، بيروت، دار الجيل.

٢٤ - الشافعى : (محمد بن إدريس) : **الرسالة**، القاهرة، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٤٠م.

٢٥ - عائشة عبد الرحمن : **لغتنا والحياة**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧١م.

٢٦ - عبد السميع محمد أحمد : **المعاجم اللغوية**، القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٦٩م.

٢٧ - عبد العزيز مطر : **لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة**، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

٢٨ - على عبد الواحد وافى : **فقه اللغة**، ط ٨، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٤٥م.

٢٩ - ابن فارس (أبو الحسن) : **معجم مقاييس اللغة**، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٦٩م.

٣٠ - ابن فارس : **الصاحبى فى فقه اللغة**، القاهرة، مطبعة الحلبى.

٣١ - الفارابى (أبو إبراهيم اسحاق بن إبراهيم) : **ديوان الأدب**، القاهرة، مجمع اللغة العربية.

٣٢ - الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب) : **القاموس المحيط**، القاهرة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٥٢م.

٣٣ - الفيومى (أحمد بن محمد بن على المعترى) : **المصباح المنير**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧م.

٣٤ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : **تأويل مشكل القرآن**، القاهرة، دار التراث، ١٩٧٣م.

٣٥ - القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى) : **الجامع لأحكام القرآن**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٧م.

٣٦ - القلقشندى : (أبو العباس أحمد بن على) : **صبح الأعشى فى صناعة الإنشا**، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر.

٣٧ - ابن كثير (إسماعيل بن كثير القرشى) : **تفسير القرآن العظيم**، حلب، مكتبة التراث الإسلامى.

٣٨ - الألوسى (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود) : **روح المعانى**، بيروت، إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث.

٣٩ - محمد حسن جبل : **خصائص اللغة العربية (تفصيل وتحقيق)**، دار الفكر العربى، ١٩٨٧م.

٤٠ - محمد حسن جبل : **علم اللغة (تمهيد عام)**، دار السعادة، ١٩٨٢م.

٤١ - محمد على رزق الخفاجى : **علم الفصاحة العربية**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٩م.

٤٢ - محمد كامل الفقى : **فضل القرآن على اللغة العربية**، الكويت، **مجلة الوعى الإسلامى**، وزارة الأوقاف، جمادى الآخرة ١٣٧٨هـ، سبتمبر ١٩٦٧م.

٤٣ - مصطفى عبد الحفيظ سالم : **النسق المعجمى فى العربية**، المنصورة، كلية اللغة العربية، ب.ت.

٤٤ - ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) : **لسان العرب**، بيروت، دار صاد.

٤٥ - الأنصارى (جمال الدين رحلة الطالبين أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن هشام) : **مغنى اللبيب**، القاهرة، دار الكتاب المصرى.

٤٦ - ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب) : **السيرة النبوية**، دمشق - بيروت، مؤسسة علوم القرآن.

٤٧ - الهندى (على بن حسام الدين) : **كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال**، حلب، مكتب التراث الإسلامى.

الفهرست

الموضوع	الصفحة

المبحث الرابع

فضل اللغة العربية لدى الأئمة والعلماء

المبحث الخامس

مواقف لغوية من التراث فى الحرص على اللغة والالتزام بها والحفاظ عليها

رقم الإيداع ١٣٧٦٥ / ١٩٩٩
I. S. B. N
977 - 294 - 163 - 5

مطابع آمـــون
٤ الفهروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦